

يوسف الآغا

حزب الله

وثقافة الاستشهاد



مكتبة
مؤمن قريش

www.muhammadquraysh.com



معهد الدراسات الاستراتيجية

يوسف الآغا

حزب الله

وثقافة الاستشهاد



مركز الدراسات الاستراتيجية



مكتبة مؤمن قريش

أو وضع إيمان أي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الحق
في كفة الأخرى ليرجح إيمانه.
(إمام الصادق ع)

moamenquraish.blogspot.com

الكتاب : حزب الله وثقافة الاستشهاد

المؤلف : يوسف الآغا

المترجم : نادين نصرالله

التحرير والاشراف اللغوي : حسين بن حمزة

مراجعة الترجمة : معهد الدراسات الاستراتيجية

الطبعة: الأولى ٢٠٠٧ بغداد - أربيل - بيروت

© حقوق الطبعة العربية محفوظة لمعهد الدراسات الاستراتيجية - العراق .
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الإسترجاع، أو نقله، على أي
نحو، أو بأي طريقة سواء كانت «الكترونية»، أو «ميكانيكية»، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو
خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقداً.

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a
retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical,
photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the
publisher.

حزب الله وثقافة الاستشهاد

١ - مقدمة

تَشغل العمليات الانتحارية أو الاستشهادية فكرَ العديد من الأشخاص في هذه الأيام. فالانتحار مُحَرَّم في الديانتين المسيحية والإسلامية - حيث يكون العقاب الهلاك الأبدي في الجحيم - غير أن الحركات الإسلامية تجيز الاستشهاد أو عمليات التضحية بالنفس بينما يدينها الغرب ويعتبرها هجمات إنتحارية وإرهابية. لكن مفهوم الاستشهاد يبدو أمراً مبهماً بالنسبة إلى الغرب لأنه وبكل بساطة تبدو فكرة تفجير الفرد نفسه وقتل آخرين مرعبة خاصة إذا ما كانوا مدنيين أبرياء. والسؤال الأساسي المطروح في هذا البحث هو دراسة كيفية استخدام الخطاب الديني والسياسي والقومي لتبرير الاستشهاد لدى الحركات الإسلامية وبشكل خاص لدى حزب الله، وكيف يتغير هذا الخطاب مع الوقت. ومع أن هناك انقساماً عاماً بين المسلمين وغير المسلمين حول هذه المسألة، غير أن هذا الانقسام شبه معدوم في لبنان إذ إن بعض القادة المسيحيين قد أجازوا العمليات الاستشهادية لأهداف وطنية وسياسية. لكن يبقى اهتمامي الأساسي تحليل كيفية تعامل السلطات الدينية في حزب الله مع هذه المسألة. وهنا أحاول كشف النقاب عن خطاب حزب الله الديني - السياسي وتحليل الفتاوى والخطابات التي تناول مسألة الاستشهاد.

يجيز حزب الله العمليات الاستشهادية في إطار استراتيجية
مقاومة محددة وذلك تماشياً مع هويته كحركة جهاد إسلامية - بمعنى
آخر كحركة مقاومة. يعلن حزب الله صراحة في «حزب الله، من
هو وماذا يريد؟»^(١) أنه: «دشن [حزب الله] عبر مقاومته أسلوباً
نووعياً في جهاده ضد العدو الصهيوني (إسرائيل) تمثّل بالعمليات
الاستشهادية التي ألحقت خسائر نوعية بالعدو، على المستويات كافة
العسكرية والأمنية والنفسية، كما شكلت رافعة معنوية هائلة على
صعيد الأمة».

هل إن العمليات الانتحارية تكتيك شرعي في حرب تُخاض
لنيل الاستقلال؟ هل يبرر سعي حزب الله لنيل الحرية الوطنية
لجوءه إلى العمليات الاستشهادية؟ هل الاستشهاد لزام على الرجال
دون سواهم، أم هو من واجب النساء أيضاً؟ هل ثمة فهمٌ متطور
لدور الاستشهاديين؟

١ - ١ خلفية الدراسة

توصل مسح أجرته وكالة رويترز وتناول رد فعل الفلسطينيين
حيال العمليات الانتحارية إلى أن ٧٥٪ من الفلسطينيين دعموا عملية
الرابع من أكتوبر العام ٢٠٠٣ الانتحارية وهي سادس عملية تقوم بها
امرأة فلسطينية منذ بدء الانتفاضة. قامت بالعملية المحامية هنادي

(١) يشكل «حزب الله، من هو وماذا يريد» برنامج حزب الله السياسي وعقيدته
الأيدولوجية ويمكن اعتباره نسخة موجزة ومعدلة لـ«الرسالة المفتوحة» أو
«البيان الرسمي السياسي» الصادر عن حزب الله في العام ١٩٨٥.

جرات (٢) التي فجرت نفسها فقتلت عشرين مدنياً إسرائيلياً غداة الاحتفال بيوم كيور (يوم الغفران) في حيفا، وهي مدينة يفترض بها أن تعكس التعايش الإسرائيلي - الفلسطيني السلمي. تضمنت العينة ١٣١٨ فلسطينياً من الضفة الغربية وغزة، ١٧٪ منهم كانوا ضد العملية و٤،٤٪ منهم أدانوها بشدة (٣). علق مؤسس حركة حماس الشيخ أحمد ياسين على العملية قائلاً: «أقول إنه في هذه المرحلة (من الانتفاضة)، لسنا بحاجة إلى النساء كما الرجال. لا نستطيع تلبية الحاجات المتزايدة للشبان الذين يرغبون بالقيام بعمليات استهادية» (٤).

في ١٤ كانون الأول/يناير ٢٠٠٤، فجرت ريم صالح الرياشي نفسها وهي سابع امرأة انتحارية وأول أم فلسطينية (٥) في مجموعة

(٢) تجدر الإشارة إلى أن السفير الإسرائيلي في استوكهولم زفي مازيل قام بتحطيم لوحة فنية - تظهرها كيباض الثلج تسبح في بحرية دماء - لأنه اعتبرها «تجديداً مريباً للانتحاريين وتحريضاً على قتل الشعب الإسرائيلي». على الرغم من أن العمل الفني كان ليهودي ولد في إسرائيل (درور فايلر وزوجته غونيل سكولد فايلر)، إلا أن شارون أشاد برد فعل مازيل «في وجه هذا التطور الجديد المعادي للسامية». راجع «طرده السفير الإسرائيلي من المتحف السويدي بعد تحريبه لوحة فنية»، و«السويد واسرائيل في شجار دبلوماسي عنيف حول فضيحة فنية» (وكالة الصحافة الفرنسية)، ١٧ و١٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

(٣) راجع «غالبية الفلسطينيين يدعمون العملية الاستهادية»، السفير، ٢٠ تشرين الأول، أكتوبر ٢٠٠٣.

(٤) راجع الشرق الأوسط، ٢ شباط/فبراير ٢٠٠٢ كما ذكرت جويس م. دايفس، الشهداء: براءة، انتقام ويأس في الشرق الأوسط. نيويورك: Palgrave Macmillan، ٢٠٠٣، ٧٩.

(٥) لديها ابن وابنة: «عبدة، ثلاثة سنوات وضحي، ثمانية عشر شهراً. تحدثت ريم الرياشي من عائلة غنية تملك مصنع بطاريات. راجع صالح المصري، «ريم =

من الجنود الإسرائيليين على معبر إيريتز في غزة فقتلت أربعة وجرحت سبعة^(٦). خلال الصلاة على روحها، أعلن القائد السياسي في حماس محمود الزهار: «الاستشهادية ريم بطلة إذ قد تخلت عن كل شيء. كانت زوجة شابة تركت وراءها زوجاً وأولاداً لتذهب إلى الجنة... ولن تكون آخر استشهادينا»^(٧).

ومع أن الشيخ ياسين كان قد أعلن في السابق، أنه مع وجود العدد المتزايد من الرجال المناضلين، ليس ضرورياً أن تشترك النساء في العمليات الاستشهادية، على الرغم من تزايد عدد الرجال المناضلين، يبدو أنه تراجع عن قراره لاحقاً بسبب التغييرات التي فرضتها ساحة المعركة. فقد قال تعليقاً على عملية الرياشي: «تشكل العملية حداً فاصلاً على صعيدين: أولاً لأن امرأة قامت بها (أول امرأة من حماس تقوم بعملية مماثلة)؛ وثانياً لأنها جاءت خلاصة محاولة مشتركة بين كتائب شهداء الأقصى وكتائب عز الدين القسام».

وأضاف ياسين أن حماس ترفض وقفاً لإطلاق النار مع «الصهيانية» لأن ذلك يعتبر بمثابة الاستسلام: «يعلم الجميع أنه ما من سبيل أو خيار غير سبيل المقاومة»^(٨).

في تبريره لمساهمة النساء في الجهاد والاستشهاد، شدّد الشيخ

= الرياشي: زوجة مثالية وأم تعشق أولادها»، الانتقاد، ١٠٤١ (٢٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤).

(٦) راجع الصحف اللبنانية الصادرة بتاريخ ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

(٧) راجع «اسرائيل تحاصر قطاع غزة بعد هجمات حماس الانتحارية، وكالة الصحافة الفرنسية، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

(٨) النار، نشرة أخبار الساعة السابعة والنصف، ١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

ياسين على أن الجهاد يصبح واجباً دينياً مفروضاً على المسلمين أجمعين، نساءً ورجالاً، عندما يحتل العدو أرض المسلمين (فلسطين)، كرر قائلاً:

«كنا نقول في الماضي إننا نترك النساء جانباً إلا في حال بروز حاجة ملحة لقيامهن بعمليات استشهادية. وبالتالي، عندما وجد إخواننا في كتائب الأقصى حاجة لتنفيذ العمليات بواسطة نساء، قاموا بذلك وهذا من وجهة نظري، بداية جديدة للنساء. أما في ما يخص الجهاد، ليس الأمر بالجديد بل الاستمرار في المنهج نحو الاستشهاد والنضال عبر الاستعانة بالرجال والنساء على حد سواء»^(٩).

ما الذي أدى إلى هذا التحول الواضح في تفكير ياسين وخطابه؟ تجدر الإشارة إلى أنه في صبيحة الثاني والعشرين من آذار/مارس ٢٠٠٤، أسكتت إسرائيل الشيخ ياسين إلى الأبد في ما تسميه «التصفيات السياسية». نال ياسين بعد اغتياله لقب «الشهيد القائد» وانطلقت موجة من الغضب العارم وسط مطالبات بالتأثر على أساس «العين بالعين والسن بالسن»^(١٠). أعتقد أن هذا الحدث

(٩) إذاعة النور، نشرة أخبار السادسة بتوقيت غرينيتش، ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤. راجع أيضاً عماد عيد «الشيخ أحمد ياسين في حوار خاص مع الانتقاد: كانت المرأة الفلسطينية في جيش الاحتياط وقد حان دورها». الانتقاد، ١٠٤١/ (٢٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤). عرض الشيخ ياسين أوجه الشبه بين الصلاة والجهاد كواجبين دينيين ملزمين للجنسين.

(١٠) راجع «حماس تعلن الحرب «المفتوحة» على إسرائيل بعد اغتيال القائد الروحي الشيخ أحمد ياسين» و«إسرائيل تقتل الشيخ ياسين، حماس تتعهد حرباً مفتوحة»، وكالة الصحافة الفرنسية، ٢٢ آذار/مارس ٢٠٠٤.

سيقوي عزيمة الفلسطينيين على المقاومة وسيلقي «تأثير الدومينو» الناتج من العمليات الاستشهادية بظلاله بقوة حتى في الداخل الإسرائيلي. يعتمد هذا التوقع على سابقة هي اغتيال الأمين العام الثاني لحزب الله السيد عباس الموسوي في ١٦ شباط/فبراير ١٩٩٢ بواسطة طوافة اسرائيلية، وقد توقعت اسرائيل أن تؤدي عملية الاغتيال إلى إضعاف الحزب. غير أن الفجوة بين تكهنات اسرائيل والتطورات الميدانية حالت دون تحقيق هذا الهدف، بل على العكس قوّت من تعبئة حزب الله وعزيمته على إنهاء الاحتلال بعد ثماني سنوات، عندما اندحرت القوات الإسرائيلية خارج لبنان إثر حرب استنزاف دامية. وقد تجسد هذا التحليل في خطاب السيد نصرالله الوداعي للشيخ ياسين في اليوم نفسه: «إن استشهاد قائد المقاومة في فلسطين، الشيخ ياسين هو ولادة للمقاومة وإعادة انبعاثها... يضع استشهاد قائد المقاومة الشيخ ياسين المقاومة على درب النصر النهائي»^(١١).

الإسرائيليون يعدّون حالياً خطأ لإنهاء وجودهم في غزة. يبقى السؤال كيف ستردّ اسرائيل على الموجة الجديدة المتوقعة من العمليات الاستشهادية؟

تكنم الإشكالية في أن بعض علماء الاجتماع تناقشوا حول

(١١) قرن حزب الله القول بالفعل عبر دعمه وتضامنه الرمزي مع الانتفاضة «عندما استهدفت كتائب الشهيد والقائد العظيم الشيخ أحمد ياسين» كافة المواقع الإسرائيلية في شبعاء بوابل من الصواريخ (٦٥ صاروخاً وقذيفة). حتى أن حزب الله تحطى الخط الأحمر عندما أسكت مدفعية اسرائيلية كانت تقصف الأراضي اللبنانية من مرتفعات الجولان السوري. راجع الصحف اللبنانية الصادرة في ٢٣ آذار/مارس ٢٠٠٤؛ النار والنور، ٢٢ آذار/مارس ٢٠٠٤.

فكرة أن الشيعة قد طوروا حساً بالشهادة. على سبيل المثال، يؤكد كول وكيدي أن العقيدة الشيعية تشكل ثقافة للاستشهاد أو تمييز «بعقدة الشهيد»^(١٢)، بينما يصنف فؤاد عجمي الشيعة على أنهم «انتحاريون»^(١٣). لكن على الرغم من أن بعض الكتاب ينظرون إلى الاستشهاد بوصفه ظاهرة شيعية محضة، إلا أن الفلسطينيين السنة والقوميين اللبنانيين من كافة الطوائف الرئيسية قد نفذوا أيضاً عمليات مماثلة. وإذا كان ثمة ادعاء بأن السنة قد تبنوا الخطاب الشيعي حول الاستشهاد، فبالتالي، إضافة إلى الخطاب الديني، أي نوع من الخطاب يعتمد العلمانيون؟ إذا اعتمد حزب الله والمقاومة الفلسطينية على رأسهم الرمزي لإجازة العمليات الاستشهادية، فكيف يمكن تفسير العمليات الاستشهادية التي تقوم بها أحزاب سياسية أخرى علمانية وقد نفذها رجال ونساء من مختلف الانتماءات المذهبية؟ إذاً على الرغم من أن الاستشهاد قد أصبح العلامة الفارقة للمجموعات الإسلامية، إلا أنه لم يكن محصوراً بها. على سبيل المثال، لقد نفذت أحزاب لبنانية علمانية عمليات استشهادية استهدفت قوات الاحتلال الإسرائيلي. قام الحزب الشيوعي اللبناني بعمليات استشهادية نفذتها امرأة مسيحية بينما قام الحزب السوري القومي الاجتماعي باثنتي عشرة عملية استشهادية نفذها بالتساوي ست نساء وستة رجال ينتمون إلى مختلف الطوائف والمذاهب.

(١٢) خوان كول ونيكي كيدي، «الشيعة والاعتراض الاجتماعي». نيو هافن: صحافة جامعة يال، ١٩٨٦، ص ٢٨.

(١٣) فؤاد عجمي، «الإمام المغيّب: موسى الصدر وشيعة لبنان». Ithaca، صحافة جامعة كورنيل، ١٩٨٦.

١ . ٢ حكاية: «مقدمة في الجنة»، والدة الشهيد^(١٤)

الاستشهاد ١: ^(١٥) في يوم الأحد ٩ أيار (مايو) ١٩٩٩ / ذهبنا نيني بييري Nynne Bjerre وفيبيكي توفت Vibeke Toft وأنا لمقابلة والدة استشهادي^(١٦) من حزب الله في الضاحية الجنوبية لبيروت في منزل متواضع بالكاد يقف ثابتاً. اختبرت الطالبتان الدانماركيتان في الصحافة «صدمة ثقافية» عندما علمتا أن عليهما تهنئة الوالدة بدل تقديم واجب العزاء. بصفتي لبنانياً، لم أتفاجأ لكن الدانماركيتين أصيبتا بالارتباك. سألتا كيف يمكن لأحدهم أن يهنئ أماً على خسارتها لابنها؟ كيف يمكن لأم محبة أن تقدم ولدها بإرادتها للموت؟ غير أن ذهول الدانماركيتين الجلي شكل تحدياً كبيراً لوالدة الاستشهادي الأمية. قالت: «يا بناتي، لو لدغتكما أذعى وبدأ السم يتدفق في دمائكما، هل تتركانه يصل إلى قلبكما ويقتلكما أم تمتصانه خارجاً؟»

ثم قدمت تشبيهاً آخر: قالت إنه لو اكتشف شخص غدة

(١٤) «مقدمة في الجنة»، راجع W. von Goethe, Faust. Baltimore, MD: Penguin Books, 1983. والدة الشهيد: راجع «مقدمة» هالة جابر في «حزب الله: ولد مع الانتقام». نيويورك: صحافة جامعة كولومبيا، ١٩٩٧؛ راجع أمال سعد غريب، «حزب الله: السياسة والدين». لندن. مطبعة بلوتو، ٢٠٠٢، ص ١٢٧-١٣٣.

(١٥) للتمييز بين «معاني الاستشهاد الأربعة» المستخدمة في هذه المقالة، راجع الفقرة ٢.٤

(١٦) في حرب الاستنزاف التي شنها ضد القوات الاسرائيلية التي تحتل جنوب لبنان، نفذ حزب الله اثنتي عشرة عملية استشهادية استهدفت جنوداً من الجيش والمخابرات الاسرائيلية الذين يحتلون جنوب لبنان. راجع حسن فضل الله، سقوط الوهم: هزيمة الاحتلال وانتصار المقاومة في لبنان، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١، ص ٢٣٣.

سرطانية في جسده، ألن يزيلها منذ البداية حتى لا تقتله؟ أظهرت لنا بعض الصور لابنها من دون أن تذرف دمعة واحدة؛ فقد كانت مرتاحة للغاية. جادلت قائلة «الكرامة هي عكس الذل والموت هو عكس الذل»^(١٧). أضافت أن الاستشهادي (ابنها) «تصرف وكأنه يعاكس قدره، صقر برونزي، محب للغير يتجلى أعظم واجب له ويكمن مصدر عزته (العزة والكرامة) في التضحية بنفسه لصالح بلده عبر قتل أكبر عدد من الأعداء»^(١٨). وشددت قائلة: «هذا أعظم فخر يمكن أن يحدث لأم».

الاستشهاد ٢: في هذا السياق، حتى الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله شعر «بالغصة» عندما كان يصفح والد شهيد - ليس لأنه شعر بالخجل منه بل لأنه لا هو ولا عائلته نالوا شرف تضحياتهم بشهيد. لكن الوضع لم يعد على هذا النحو منذ أن «ضحى» بابنه هادي البالغ ١٩ عاماً. وبالتالي باستشهاده واستشهاد العديد من الآخرين، لن تموت القضية، سيحيا لبنان وينتصر حزب الله: «فإن حزب الله هم الغالبون»^(١٩) (سورة المائدة، آية ٥٦).

(١٧) تنسب هذه الخصال إلى الإمام الحسين والإمام علي. راجع الكتيب حول الجهاد والاستشهاد بعنوان «الجهاد وخصال المجاهدين». بيروت: مركز بقية الله، ١٩٩٩، ص ٥٤. أستخدم هذا التصريح كدليل على رأس المال الرمزي.

(١٨) ثمة تشابه كبير مع خطاب نصر الله السياسي خاصة خطابه بتاريخ ٢٠، ٢٢، ٢٥ و ٢٥ أيار/مايو ٢٠٠١ و ٢٣ أيار/مايو ٢٠٠٢ - في الذكرى الأولى والثانية للانسحاب الإسرائيلي. راجع أندري مالرو، قدر الإنسان. نيويورك: Vintage books، ١٩٩٠

(١٩) مأخوذ من خطاب لنصر الله بعد استشهاد ابنه هادي في ١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧. راجع «عرس أيلول: قصة الشهيد هادي حسن نصرالله» بيروت: دار =

٢ - الجهاد والاستشهاد

الفرق التقليدي بين الجهاد الهجومي والجهاد الدفاعي معروف. وقد تمت مناقشته بشكل واف في كتيب «الجهاد والاستشهاد»^(٢٠). وفي السياق نفسه، يميز خسروخافار Khosrokhavar بين ما يسميه «شكلي الاستشهاد» أي «الاستشهاد الهجومي» و«الاستشهاد الدفاعي» وهما مفهومان يتطابقان على التوالي مع الجهاد الهجومي والجهاد الدفاعي^(٢١). ويوضح موصلي التزاوج المقدس السائد بين الجهاد والاستشهاد. ووفق ما يقول: «يتقيد حزب الله بعقيدة الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر. بينما يشار بالجهاد الأصغر إلى النضال ضد أعداء الإسلام، حدّد النبي ﷺ الجهاد الأكبر على أنه الجهاد الذي يشمل خدمة الفرد للقضية الدينية. يوسّع حزب الله من عقيدة الجهاد الأكبر لتشمل الجهود كافة التي يبذلها الفرد لإتمام واجبه كمؤمن... يتمتع الجهاد بميزات أساسية كالواقعية... على الرغم من أن الجهاد يهدف إلى تحويل أي مؤسسة تعترض على الإسلام أو لا تسمح بممارسته بحرية، غير أنه لا يشكل انتحاراً أو حملة أفعال وحشية»^(٢٢).

يصرح السيد نصرالله: «ليس كل اقتتال جهاداً». بحسب وجهة نظره، المصطلح القرآني للجهاد أو تحديده هو خصوصية الجهاد

= الأمير، ٢٠٠١: «سجل النور: فتاويل إلى الزمن الآخر». كتاب من المركز الإعلامي لحزب الله، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨.

(٢٠) «الجهاد وخصال المجاهدين»، ص ٣١-٣٧.

(٢١) راجع فرهاد خسروخافار، «شهداء الله الجدد». باريس: فلاماريون، ٢٠٠٢، ص ١٢-٢٠.

(٢٢) أحمد موصلي، المعجم التاريخي للحركات الإسلامية الأصولية في العالم العربي، وإيران وتركيا. لندن: مطبعة سكاركرو، ١٩٩٩، ص ٩٨، ١٥٤، ١٥٥.

في النضال باسم الله :

[يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا... ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً].

بحسب السيد نصرالله، إنه أقسى عقاب ورد في القرآن تجاه شخص يقتل عمداً أحد المؤمنين، إذ إن هذا العمل يعتبر من الكبائر. يضيف السيد نصرالله أن للجهاد أوامره ونواهيه الدينية الخاصة به: فمن نواهيه الحلال والحرام. لهذا السبب شدّد على ضرورة سؤال رجال الفقه حول التفاصيل الفقهية المتعلقة بالعمل الجهادي وإلا لن يكون إنجاز هذا العمل في سبيل الله بل لغايات أخرى. لذا يُحكّم الجهاد في سبيل الله حسب شريعة الله والخضوع الكامل والانصياع لإرادة الله. من هنا التفاني للاستشهاد وحب ملاقاته^(٢٣). من هذا المنظور، أذان السيد نصرالله صراحة تفجيرات مدريد الإرهابية التي وقعت في ١١ آذار/ مارس وحصدت أرواح ١٠٩ مدنياً بريئاً وأصابت حوالي ١٤٠٠ آخرين. قال نصرالله: «ما حصل في مدريد مدان بالمعايير والمقاييس كلها... نحن في حزب الله ندين هذه الجريمة النكراء والهجوم السافر ضد المدنيين والناس الأبرياء. كل هجوم يستهدف مدنيين أبرياء بغض النظر عن البلد أو الدين أو الأمة الذين ينتمون إليه هو فعل جبان يُجابه بانتقاد حاد من منظور إسلامي وقرآني ومحمدي»^(٢٤).

(٢٣) راجع خطاب السيد نصر الله في أول عرم ١٤٢٥ هجري، ٢٠ شباط/ فبراير ٢٠٠٤.

(٢٤) خطاب السيد نصرالله في ذكرى مرور أسبوع على استشهاد يوسف حبيب في ١٤ آذار/ مارس ٢٠٠٤.

ومع أن العديد من العلماء يعترفون بأن الإرهاب هو سلاح الضعفاء^(٢٥)، إلا أنهم لا يشددون بشكل كاف على أن «الحرمان النسبي» الذي غالباً ما يترافق مع خسارة الكرامة والهوية هو أحد الأسباب الأساسية لما يسميه الغرب «الإرهاب»، وتصفه الحركات الإسلامية بـ«التضحية بالنفس» أو «الاستشهاد». بحسب نظريات الحرمان النسبي: «ينخرط عضو في المجموعة في عمل جماعي كلما قام بفعل يمثل هذه المجموعة وحيث يوجّه الفعل لتحسين ظروف المجموعة ككل».

يبدو أن التحرك الجماعي يبرر «لماذا قد يتنازل الفرد عن مصالحه الشخصية ويختار عوضاً عن ذلك القيام بتحركات ضمن المجموعة ككل»^(٢٦). وبالتالي يمكن تصنيف الاستشهاد كتصرف غير أناني يهدف إلى تعزيز العمل الجماعي. يشكل مفعول أحجار الدومينو الناتج من العمليات الاستشهادية في الضفة الغربية وغزة

(٢٥) على سبيل المثال، روسيت و آل ألرغ: «من دون شك أن الإرهاب هو سلاح مجموعات ضعيفة نسبياً». راجع بروس روسيت، هارفي ستار وديفيد كينسيلا، «سياسات العالم: لائحة الخيارات». نيويورك: بيدفرد/سان مارتان، ٢٠٠٠ ص ٢٠٩. يقر هينبوش أيضاً بأن الإرهاب «سلاح الضعفاء». راجع رايمند هينبوش وأنوشيرفان إحتشامي، «السياسة الخارجية لدول الشرق الأوسط». بولدر: منشورات لين راينز، ٢٠٠٢، ص ٧٧. يتبنى الرأي نفسه بول فيوتي ومارك كوبي، العلاقات الدولية وسياسات العالم: الأمن والاقتصاد والهوية. نيو جيرسي: برنتيس هول، ١٩٩٧، ص ١٦٢

(٢٦) راجع ستيفان رايت وليندا تروب، «العمل الجماعي رداً على الأذى: منظورات داخل المجموعة، التماهي الاجتماعي والتغير الاجتماعي»، في إيان ووكر وهشر سميث، «الحرمان النسبي: التحديد والتطور والاندماج». كامبردج: مطابع جامعة كامبردج، ٢٠٠٢، ص ٢٠٣، ٢٠١، ٢٠٢

واسرائيل دليلاً على بلوغ هذه الغاية. وفي هذا الصدد، يقدم السيد ابراهيم الموسوي^(٢٧) شرحاً دينياً أيديولوجياً:

«مزيج من الإحباط والغضب والاضطهاد واليأس وإيمان قوي^(٢٨) وتكريس لا متناه، تجتمع هذه العوامل كلها لتجعل من الفلسطينيين ما هم عليه الآن: قنابل بشرية... يقدم الانتصار اللبناني ضد الجيش الإسرائيلي أفضل مثال على كيفية تحرير الأرض. فقد خاض اللبنانيون تجربة عمليات التضحية بالنفس مع أنهم لم يكونوا أول من قام بها... سار مقاتلو المقاومة في جنوب لبنان وفلسطين المحتلة بلا هوادة كقنابل بشرية باتجاه أهدافهم. فقد قام أعضاء المجموعات الإسلامية في جنوب لبنان وفلسطين بعملياتهم الاستشهادية يدفعهم إيمانهم الديني وشجاعتهم للقيام بآخر اختبار

(٢٧) وجه إعلامي في حزب الله ومحرم في تلفزيون المنار وكاتب في صحيفة الانتقاد الأسبوعية.

(٢٨) تصوغ المقاربات النفسية للثورة فرضية إحباط - عدوان تقوم على أن ظاهرة «الحرمان النسبي» مسؤولة في الأساس عن الثورة. وفق دعاة هذه النظرية «فإن نظرة الفرد للفرد بين طموحاته - الاقتصادية والسياسية والاجتماعية - وإشباع هذه الطموحات» هي السبب وراء «استمرار الحرمان». يشكل «استمرار الحرمان» هذا محفزاً للغضب الذي يقود إلى العدوان بصفته رد الفعل المرضي الفطري (جايمس دايفس، «عندما يشور الرجال ولماذا؟»، نيويورك/ المطبعة الحرة، ١٩٧١، ٢٩٤). وهكذا فإن واضعي النظريات أمثال تيد غور وجايمس دايفس يشددون على «الوضعية الذهنية» الساخطة بصفقتها المحدد الأبرز للثورة بدل أن يكون المزود الحالي (أو غياب) الحاجات المادية والمساواة الاجتماعية والسياسية. (المصدر نفسه، ص١٣٦). ولمزيد من التحديد يعتبر غور الفروقات الدينية إحدى المصادر المزمّنة للحرمان - بما فيه النزاع. يضخم مصدر ماثل النزاع الاجتماعي ولا سيما عندما تكون القيم الأساسية في خطر يضاعف من إمكانيات الحركات الإسلامية (المصدر نفسه صفحة ٢٩٩).

للإيمان. يؤمنون أنهم مقابل هذه التضحية سيعوض الله عليهم أجراً مبيناً: وهي الجنة. غير أن الدين يحرم أفعالاً مماثلة في حال تواجدت أفعال بديلة يمكن أن تؤدي إلى النتيجة نفسها. في مواجهة جيش اسرائيلي متفوق يتمتع بترسانة عظيمة وبغياب أي دعم خارجي فاعل، لا يجد الفلسطينيون أنفسهم أمام خيار آخر سوى اللجوء إلى أساليب مماثلة لمحاربة الإرهاب الإسرائيلي واستعباده. لذا تصبح تلك الأفعال مقبولة من قبل الدين. والجهاد في الإسلام ليس لزاماً على المرأة كواجب، ومع ذلك فقد أفتى آية الله العلامة فضل الله للنساء بالقيام بتلك العمليات في ظل الظروف الراهنة في فلسطين. فقد اغتصب الإسرائيليون حقوق الفلسطينيين وكراماتهم. ومؤخراً، أصدر بوش «فتوى» جديدة ادعى فيها أن الذي يفجر نفسه انتحاراً هو قاتل وليس استشهادياً. وأن ذلك مخالف للقرآن وتعاليم النبي ﷺ... والجواب هو أن سلسلة الذين يفجرون أنفسهم (مفعول أحجار الدومينو) تزداد طولاً فيما لا يقوى سائر العالم سوى على الانتظار»^(٢٩).

يستتبع شرح الموسوي مصطلحات قيمة لا تعكس فهم حزب الله للمفاهيم كـ«التضحية بالنفس» و«الاستشهاد» و«الانتحار» إلخ وحسب بل إدراك المجموعات الإسلامية أيضاً لهذه المفاهيم. لقد بدأت بتحديد الاستشهاد كي أتمكن من الإحاطة بتبصر حزب الله والمجموعات الإسلامية لهذه المفاهيم. ثم بدأت أفرق بين المعاني الأربعة للاستشهاد؛ بعد ذلك، ناقشتُ مصدر الاستشهاد وأسبابه،

(٢٩) راجع مقالة الموسوي بعنوان «الأس والقمع والإيمان مولدات الاستشهاد»، صحيفة الدايلي ستار، ٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٢، ص ٧.

والفتاوى والآراء حول الاستشهاد وخلصت إلى التمييز بين الاستشهاد والانتحار. وبما أن بعض الكتاب يستبدلون الجهاد بالاستشهاد والعكس صحيح فيلغون الفرق بين اللفظتين، أبدأ في الفقرة التالية بعرض التحديد المعتمد للاستشهاد في هذا البحث.

٣ - الاستشهاد

٣ - ١ تحديد الاستشهاد

كتحديد عملي للاستشهاد، سأعتمد تحديدي مومن وموصللي وأجمعهما في تحديد واحد. وفق مومن:

«أقصى حد في التضحية (بالنفس) (حب الغير) هو الاستشهاد، حيث يضحي شخص بنفسه في سبيل الدين»^(٣٠).

في الإسلام، يشكل الاستشهاد أعلى وأكثر أشكال الجهاد تمجيداً^(٣١). وفق موصللي:

«للشهيد مكانة خاصة في الإسلام، لأنه لا يعاقب يوم الحساب وجزاؤه الجنة. ومع أن المسلمين قد مارسوا تاريخياً ونظرياً الاستشهاد دفاعاً عن وجودهم وأرضهم، غير أن الأمر لا يعتبر في الطبيعة استشهاداً إذا ما مورس

(٣٠) موجان مومن، «ظاهرة الدين: مقارنة موضوعية». أوكسفورد، منشورات وانورلد، ١٩٩٩، ص ٢٣٠.

(٣١) بحسب خامنئي، «يشكل الاستشهاد أرفع مستوى من الجهاد في سبيل الله». راجع الإمام الخامنئي، «عطر الشهادة». بيروت: الدار الإسلامية، ٢٠٠١، ص ١٦-١٧.

ضد المسلمين. يؤمن الأصوليون أن الإسلام قد أوصى بالاستشهاد كسبيل للنهوض بالمجتمع والدفاع عن الضعفاء (المضطهدين). بالنسبة إليهم، يُعتبر الاستشهاد إشارة إلى أقصى درجات الإيمان بالله. واليوم، السواد الأعظم من الاستشهاديين هم من الأصوليين وخاصة المتطرفين منهم الذي يستخدمون الاستشهاد كعلامة مميزة لحركتهم»^(٣٢).

استناداً إلى اعتبارات بحث تجريبي^(٣٣) ونظري، أقترح أن يكون التحديد المشترك للاستشهاد بين المسلمين وغير المسلمين، المؤمنين والعلمانيين، بأن يتم النظر إليه على أنه شكل من أشكال السلوك غير الأناني. أقترح أنه بالنسبة للمسلمين يعتمد في الأساس على التفسير القرآني لمفهوم رأس المال الرمزي؛ فيما يبدو البعد القومي لرأس المال الرمزي بالنسبة لغير المسلمين الأكثر بروزاً.

وهنا أناقش فكرة الجهاد والاستشهاد الذي تقوم به الحركات الإسلامية التي تقاوم الاحتلال انطلاقةً من والدة الاستشهادي^(٣٤)

(٣٢) موصلي، «المعجم التاريخي...» ١٨٥ - ٦. يتفق أنطون في الرأي مع موصلي حيث أن «الاستشهاد هو الدليل الأقصى على توجه الناشط نحو الأصولية - التحرك صوب نقطة الموت». راجع ريتشارد أنطون، «فهم الأصولية: الحركات المسيحية والإسلامية واليهودية». أوكسفورد: مطابع ألتاميرا، ٢٠٠١، ص ١٧٤.

(٣٣) نفذ العمل الميداني ثلاث مرات في لبنان: من ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وحتى ٢٦ شباط/فبراير ٢٠٠٢؛ ومن ٢٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٢ وحتى ٦ آذار/مارس ٢٠٠٣؛ ومن ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣ حتى ٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣.

(٣٤) كما ذكر سابقاً، وصفت ابنها على أنه صقر برونزي، محب للغير يتجلى أعظم واجب له ويكمن مصدر فخره (الشرف والكرامة) في التضحية بنفسه لصالح بلده عبر قتل أكبر عدد من الأعداء. هذا أعظم فخر يمكن أن يحدث لأم.

وبعد استخلاص النظريات من النقاش فأجد أنهما شكلان من أشكال السلوك غير الأناني والقائم على التضحية بالنفس، الأمر الذي يتجلى في رأس المال الرمزي. (إن حب الغير فعل يتخطى حدود المطلوب أي فعل يتخطى نداء الواجب الأخلاقي).

حدّد بورديو رأس المال الرمزي على أنه: «درجة من الهيبة المتراكمة أو الشهرة أو التكريس أو العزة (الكرامة التي يمتلكها أحدهم) المرتكزة على أساس منطق المعرفة والإدراك»^(٣٥).

وبما أن حزب الله يعرف عن نفسه بأنه «حركة جهادية إسلامية»^(٣٦) فإن رأس المال الرمزي تكون له أهمية حيوية.

«يشير رأس المال الرمزي هنا إلى وضعية مقاتل يناضل في سبيل «الإسلام الحقيقي» مهما كان هذا يعني»^(٣٧). تنقل الآية القرآنية التالية [لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين] (سورة النساء؛ ٩٥) فكرة رأس المال الرمزي هذه. أي كلما حارب شخص مستخدماً ما هو ملكه أو شخصه، كلما زاد

(٣٥) بيار بورديو، «حقل الإنتاج الثقافي». كامبريدج: مطابع بوليتي، ١٩٩٣، ص ٧؛ «بكلمات أخرى: مقالات حول علم اجتماع انعكاسي». كامبريدج: مطابع بوليتي، ص ٢٢، ١١١. كما ذكر عثمان كاين، «العصرنة الإسلامية في نيجيريا ما بعد الاستعمار: دراسة عن المجتمع حول إزالة الابتكار وإعادة التقاليد. لايدن: بريل، ٢٠٠٣، ص ٢٢١.

(٣٦) راجع «الهوية والأهداف» لحزب الله.

(٣٧) «يرى حزب الله أيضاً نفسه ملتزماً بتقديم الصورة الحقيقية للإسلام، الإسلام المنطقي. إنه ملتزم بتقديم الإسلام الحضاري للإنسانية». «الهوية والأهداف» لحزب الله.

من رأس ماله الشخصي»^(٣٨).

غير أن رأس المال الرمزي ليس حكراً على أولئك الذين يحاربون تحت راية الإسلام وحسب؛ بل تلجأ إليه حركات أخرى قومية ومقاومة. على سبيل المثال، قال قائد الحزب السوري القومي الاجتماعي في معرض تبريره المقاومة والاستشهاد: «إن الحياة وقفة عز فقط»^{(٣٩)(٤٠)}.

استناداً إلى ما سبق ذكره، أفرق في الفقرة التالية بين معاني الاستشهاد الأربعة خاصة بين الحركات الإسلامية، لكن يمكن تطبيقها أيضاً على غير المسلمين. وبالتالي قد تجيب الفقرة التالية على سؤال لماذا يستشهد الناس؟ هل يرغب الجميع بالاستشهاد أم يكون في بعض الأحيان عرضياً؟

(٣٨) كاين، «العصرنة الإسلامية»... ص ٢٢. تجدر الإشارة إلى أن الآية القرآنية (٤)، (٩٥) ليست الآية الوحيدة التي تذكر فكرة رأس المال الرمزي. فثمة آيات أخرى كثيرة يستشهد بها حزب الله؛ هنا أحيل إلى الأكثر وضوحاً، حيث يذكر الجهاد كوسيلة لمراكمة رأس المال الرمزي في الآيات (٦١؛ ١١-١٢) وفي (٩؛ ١١١). أما الاستشهاد كوسيلة لمراكمة رأس المال الرمزي فيبرز في (٣؛ ١٦٩).

(٣٩) تحدد الكرامة بوصفها «عكس الذل» على أيدي العدو؛ ويفضل «الموت خير من الذل». وكما سيبرز لاحقاً، يستخدم نصرالله خطاب «الكرامة» نفسه أو رأس المال الرمزي لتبرير العمليات الاستشهادية ضد جيش الاحتلال الإسرائيلي، وكذلك الأمر بالنسبة لأقرباء الشهداء عندما يحاولون تقديم تبرير للاستشهاد.

(٤٠) تستند العمليات الاستشهادية التي نفذها الحزب السوري القومي والمقاومة ضد اسرائيل على أيديولوجيا سياسية كما يقول سعادة. يشير أنطون سعادة، اللبناني المسيحي المؤسس للحزب القومي السوري الاجتماعي العلماني «إن شهداءنا هم دليل نصرنا»؛ «إن علاقتنا مع اليهود هي علاقة العين بالعين والسن بالسن». شكل سعادة كتيبة لمحاربة اسرائيل، وفي العام ١٩٤٩ نفذت الدولة اللبنانية بحقه حكماً بالإعدام رمياً بالرصاص. لمناقشة أيديولوجيا الحزب السوري القومي، راجع =

٣ - ٢ معاني الاستشهاد الأربعة^(٤١)

قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أنها ترجع إلى الدنيا ولا أن لها الدنيا وما فيها إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل في الدنيا، لما يرى من فضل الشهادة»^(٤٢).

وحسب قول وينسينك:

«توجد روح العقيدة الإسلامية الأخيرة المتعلقة

= على سبيل المثال لبيب يماك، «الحزب السوري القومي الاجتماعي: تحليل أيديولوجي». هارفرد: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٦٦؛ هيثم قادر، «الحزب السوري القومي الاجتماعي: أيديولوجيته وتاريخه المبكر». بيروت: دار الفكر، ١٩٩٠؛ وكريستوف شومان. «جيل التوقعات الواسعة»، Die Welt Des Islams، ٤١ (٢٠٠١) ٢، ١٧٤-٢٠٥.

(٤١) مع أن التقليد الإسلامي يفرق بين الفئات الثمانية للاستشهاد التي تشير كلها إلى «الموت المبكر أو العنيف»، أحصر نفسي في هذه المقالة بالفئة الأولى ولا سيما الاستشهاد في سبيل الله أو الجهاد. يكتب وينسينك مستنداً إلى توالي الحديث أنه في العادات الإسلامية «الشهداء سبعة إلى ذلك الذي قتل في سبيل الله (الجهاد). الذي يموت ضحية لوباء هو شهيد؛ والذي يموت غرقاً شهيد؛ والذي يموت من الإسهال شهيد، والذي يموت حرقاً شهيد، والذي يموت جراء سقوط منزل أو انهيار جدار شهيد، والمرأة التي تموت خلال الوضع شهيدة». وينسينك، «العقيدة الشرقية للشهداء»، في Mededeelingen der Koninklijk Akademie van Wetenschappen, Afdeling Letterkunde; dl. 53, nr. 6. Amsterdam: Koninklijk Akademie van Wetenschappen (KNA W publications) ١٩٢٢، ١٧٢-٧٣.

(٤٢) مومن، «ظاهرة الدين...» ٥٥٤. يذكر كتاب «الجهاد وخصال المجاهدين» في الصفحة ٥٤ حديثين يعطيان المعنى نفسه ولا سيما «يتوق الشهيد إلى العودة إلى هذا العالم كي يستشهد مرة ثانية». كذلك الأمر بالنسبة إلى وينسينك «العقيدة الشرقية للشهداء»، ص ١٤٩، ١٥٢.

بالشهداء في القرآن. فالآية العشرون في سورة التوبة تُقارن مع الآية الرابعة في سورة محمد والآية الحادية عشرة في سورة الصف^(٤٣). يتطور الإعجاب بالشهداء الوارد في القرآن إلى عقيدة بواسطة التقليد والعقائد، على أن يكون أساس هذه العقيدة العلاقة الوثيقة بين الاستشهاد والجنة... علاوة على ذلك، يُرَفَع الشهداء إلى منزلة تفوق منزلة الآخرين في الجنة^(٤٤).

لا بد من أن أفرق بين الفئات التالية الأربعة للاستشهاد معتمداً على مصادر أولية^(٤٥)، وذلك مع الأخذ بعين الاعتبار واقع أن الاستشهاديين معفيون من يوم الحساب وأن خطاياهم مغفورة بفضل حياتهم وموتهم^(٤٦) الواجب تقديرهما:

الاستشهاد ١: الاستشهادي المجاهد (صلب محب للغير، فعل يتخطى حدود المطلوب): يتم التلميح إلى كلمة المجاهد من دون قولها بشكل مباشر. يشار بالاستشهادي المقاتل إلى شخص مسلم يقوم - بواسطة الجهاد أو الحرب المقدسة - بتفجير نفسه عمداً وبكامل إرادته في أرض المعركة (أو في ظروف مماثلة لأرض

(٤٣) إشارة إلى أن الآيات المذكورة مأخوذة عن كتاب وينسينك باللغة الإنكليزية. لذا قد يختلف ترقيم الآية رقماً واحداً.

(٤٤) وينسينك، «العقيدة الشرقية للشهداء»، ص ١٤٧ ١٤٨

(٤٥) باختصار من حوار مطول مع نائب الأمين العام لحزب الله الشيخ نعيم قاسم حول «الشهادة والاختيار» في برنامج بعنوان «الدين والحياة» على قناة المنار، ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢؛ الخامنئي، «عطر الشهادة...» و«الجهاد وخصال المجاهدين»...

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

المعركة كما هي الحال في «الأراضي المحتلة» حيث يواصل قتاله حتى الاستشهاد) بغية تكبيد العدو أفدح الخسائر في الأرواح والماديات. بحسب ما يقول النبي محمد ﷺ، فإن هذا الرجل لا يُغسل ولا يكفن^(٤٧)، مع أن ذلك واجب ديني بشكل عام. غير أنه وكما هو معلوم من «الحديث» فإن «الملائكة تغسله». يشرح الشيخ قاسم أن هذه المعاملة الخاصة هي نوع من الاعتراف بمنزلته الخاصة أو هو عربون امتنان، ودليل على تكريم خاص لمآثره العظيمة. هكذا هي الحال على سبيل المثال لمقاتلي حزب الله الإثني عشر الذين فجروا أنفسهم مستهدفين قوات عسكرية واستخباراتية اسرائيلية خلال احتلال لبنان^(٤٨).

الاستشهاد ٢: الشهيد المجاهد (محب للغير، فعل يتخطى

(٤٧) قال النبي محمد ﷺ: للشهداء بعض الكرامات التي لا تنسب إلى الأنبياء بمن فيهم أنا. فلو مت، فسأغسل وأكفن؛ غير أن الشهيد لا يغسل ولا يكفن... فالملائكة تغسله. يستشهد وينسبك بالخاري في «الجنائز» ٧٤: «بحسب القانون والعادات يُذكر صراحة أنه لا يتم غسل الشهداء». ويسنينك، «العقيدة الشرقية للشهداء»، ١٧١. لمزيد من التفاصيل راجع الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، «وسائل الشيعة». بيروت: مؤسسة الحلول، بيت إحياء التراث، ١٩٩٣، ٥٠٦-٥١١، حديث ١ إلى ١٢، أبواب غسل الميت خاصة غسل الشهيد، في باب ١٤، حديث ٧.

(٤٨) على الرغم من أن الإمام الحسين لم يفجر نفسه (لأنه بكل بساطة لم يكن ثمة متفجرات في زمنه)، فهو يصنف في هذه الحانة. وفق العقيدة الشيعية الدينية، يعتبر الإمام الحسين سيد الشهداء «والشهيد الخالد» كما يقول عنايت إذ إنه واجه جيشاً قوياً في ساحة المعركة وهو يعلم أنه سيقتل. راجع حميد عنايت «الفكر الإسلامي السياسي المعاصر: رد المسلمين الشيعة والسنة على القرن العشرين». لندن: ماكميلان، ١٩٨٢، ١٨١-١٩٤. يخلص عنايت إلى أن الاستشهاد هو أحد «أوجه الشيعة المعاصرة الثلاثة»، ويشكل الوجهان الآخران المؤسساتية والتقنية.

حدود المطلوب): يشار بـ«الشهيد المقاتل» إلى شخص مسلم سقط وهو يواجه العدو في أرض المعركة. على سبيل المثال هذه هي حال هادي نصرالله ومقاتلين آخرين من حزب الله واجهوا إسرائيل في نضال تقليدي من دون تفجير أنفسهم. لا يغسل الشهيد المقاتل ولا يكفَّن كما في الفئة الأولى. الملائكة يغسلونه. هذه هي حال مقاتلي حزب الله الـ١٢٨١ الذين قتلوا خلال مواجهتهم إسرائيل من العام ١٩٨٢ وحتى العام ٢٠٠٠ .

الاستشهاد ٣: الشهيد (ضحية، ليس فعلاً يتخطى حدود المطلوب): يشار بالشهيد إلى مدني مسلم بريء قُتل من دون أن يشارك في القتال. يتم غسله وتكفينه لأنه مات خارج أرض المعركة. غير أن التقييم عند الله. فكما يقول آية الله خامنئي: «الاستشهاد امتياز خاص لكل شخص. ولو استجاب الله لدعائه واعتبر موته استشهاداً لوهبه أعلى الامتيازات والكرامة مقابل روحه التي صعدت إلى الجنة»^(٤٩). أما وينسينك فيعتبر أن:

«أي شخص يسعى إلى استشهاده في سبيل الله بكل استقامة يحصل على مكانة الشهيد حتى ولو مات في سريره»^(٥٠).

الاستشهاد ٤: شهيد الوطن أو شهيد القضية (محب للغير، فعل يتخطى حدود المطلوب)^(٥١): يشار بشهيد الوطن أو شهيد القضية إلى غير المسلم الذي قتل في ساحة المعركة وهو يحارب

(٤٩) الخامنئي «عطر الشهادة...» ١٧.

(٥٠) وينسينك، «العقيدة الشرقية للشهداء»، ١٥٣. أيد نصرالله هذا التحليل في خطابه

في اليوم الأول من محرم ١٤٢٥ هجري، ٢٠ شباط/فبراير ٢٠٠٤.

(٥١) بما أنه ليس واجب كل مدني محاربة العدو في ساحة المعركة.

في سبيل وطنه أو القضية التي يؤمن بها. يبقى التقييم عند الله إن كان سينال أجر الشهيد المسلم ويرُفَع إلى مستوى «الاستشهاد ٢» في المعنى الإسلامي الفقهي للكلمة. هذه، على سبيل المثال، هي حال جنود الجيش اللبناني غير المسلمين الذين قتلوا خلال المواجهة مع اسرائيل في اليوم نفسه من استشهاد هادي نصرالله ورفيقه. أيضاً شكل المقاتلون غير المسلمين في حزب الله في أيلول ١٩٩٧ السرايا اللبنانية لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي وهي تقع في هذه الخانة. هؤلاء يتم دفنهم وفق الطقوس الخاصة بدينهم.

يقودنا هذا التصنيف إلى التحقق من أصل الاستشهاد وأسبابه. هل ثمة شعور باليأس يحث على الاستشهاد؟ أم هو العامل الجنسي الذي يقف وراء عمليات مماثلة، أعني ما تشير إليه بعض وسائل الإعلام في وصفها العرائس العذراوات السبعين أو الاثنتين والسبعين اللواتي ينتظرن الشهيد في الجنة؟ إن كانت هذه هي الحال، ولو كان الشهيد أنثى، فما الذي تحصل عليه جزاء لها؟.

٣-٣ أصل الاستشهاد: الأسباب والدوافع

في تسليط للضوء على أول عملية استشهادية نفذتها أم فلسطينية، تساءلت مقالة في صحيفة الشرق عنوانها «المقاومة الاستشهادية هي ثقافة الشعوب المسحوقة» عن أسباب العمليات الاستشهادية في الأراضي الفلسطينية، معتبرة أن اسرائيل والولايات المتحدة تصنف مثل هذه العمليات على أنها إرهابية وتستعملها حجة لاستمرار الاحتلال وسياسة «القبضة الحديدية». بحسب المقالة، لا تقوى هذه التدابير الثأرية على اجتثاث الإرهاب؛ بل هي تساعد على تحفيز ما يسمى بالإرهابيين كي يضحوا بأنفسهم. وقد شددت

صحيفة «الشرق» على الحاجة الملحة لرؤيا عميقة ودراسة علمية شاملة لمعرفة الأسباب الحقيقية التي تقود هذا العدد المتزايد من الشباب المثقف على التطوع بملء إرادتهم لتنفيذ عمليات استشهادية بغض النظر عن المعتقدات الأيديولوجية أو العقائدية أو الدينية أو الدنيوية التي يؤمنون بها. وقد خلصت المقالة إلى أن المقاومة الشعبية أو الاستشهاد هي السلاح الوحيد المتوفر الذي يستطيع مواجهة «غطرسة تعزها قوة وجبروت اسرائيل». بكلمات أخرى، يمكن إنجاز تحرير الأراضي المحتلة عبر الاعتماد على تجارب المقاومة اللبنانية (نموذج حزب الله) والنصر الذي تحقق عبر إجبار «الاحتلال الصهيوني» على الانسحاب من جنوب لبنان. باختصار، شجّع الانسحاب الإسرائيلي الانتفاضة على اعتماد نموذج الاستشهاد في مقاومتها «الاحتلال الصهيوني»^(٥٢).

يؤكد ريتشارد أنطون: «تشير آيات في القرآن إلى أن الشهيد يجلس قرب الله مع رجال آخرين، ويستمتعون بالعرائس العذراوات الكثرات»^(٥٣).

أؤكد هنا أن القسم الأول من الجملة مؤكّد بفعل التقاليد المنسوبة إلى النبي، لكن القسم الثاني خيال وهمي لا يرد لا في القرآن ولا في الحديث. بدل تأكيد ادعائه بذكر الآيات القرآنية المفترضة، يقتبس أنطون من مقالة جويل غرينسبيرغ التي صدرت في عدد مجلة نيويورك تايمز بتاريخ ٢٥ كانون الثاني ١٩٩٥.

(٥٢) النور، «آراء الصحف» الساعة الخامسة والنصف بتوقيت غرينيتش، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

(٥٣) أنطون، «فهم الأصولية...»، ١٠٠.

بحسب علمي، لا توجد آيات قرآنية ولا أي حديث يشير إلى «عرائس عذراوات كثيرات» تقدّم كجزء للشهيد. وبالتالي أعتبر ادعاء أنطون خرافة لا أساس لها من الصحة في الدين الرسمي.

حاولت مستشارة الأمن القومي الأميركي كوندوليزا رايس أن تشرح العمليات الانتحارية فقالت: «إنه نوع من اليأس يؤمن أرضاً خصبة لأيدولوجيات الكراهية التي تقنع الناس بالتخلي عن تعليمهم الجامعي ووظائفهم وعائلاتهم والسعي عوضاً عن ذلك لتفجير أنفسهم - مودين بحياة أكبر عدد ممكن من الأبرياء»^(٥٤).

تقدم باربرة فيكتور^(٥٥) وجهة نظر مشابهة. في دراستها حول «الانتحاريات الفلسطينيات»، تؤكد على أن الدافع الأساسي لهذا «الحفل الفتاك هو أن «ثقافة الموت» قد تغلغلت في نفسية الشعب الفلسطيني نتيجة لليأس والضغط الاجتماعي والكتابة، وهذا ما عانت منه النساء المدمات نسبياً. قد يبدو من الصعب الدفاع عن نظرية مماثلة خاصة بعد أن فجرت امرأة حامل تدرس الحقوق وأم لطفلين نفسها. بعكس رايس وفيكتور تقول حريق محقة: «يتعارض التبرير الأصولي الكامن وراء هذا التكتيك (العمليات الإرهابية) مع المعتقد السائد بأن الإرهابيين هم مجانيين مهتاجون يفجرون أنفسهم في من يكرهون»^(٥٦).

(٥٤) راجع «مستشارة بوش كوندوليزا رايس تسوق نسختها الديمقراطية للشرق الأوسط»، وكالة الصحافة الفرنسية، ٧ آب/أغسطس ٢٠٠٣.

(٥٥) راجع كتابها بعنوان: «جيش الورد: داخل عالم الانتحاريات الفلسطينيات». PA; Rodale Press، ٢٠٠٣.

(٥٦) جوديث بالمر حريق، «حزب الله: الوجه المتغير للإرهاب». لندن: توريس، ٢٠٠٤، ٢٦.

وفي المنحى نفسه يقول مومن: «لا يجد موضوع التضحية والاستشهاد مكانته بسهولة في عالم اليوم العلماني والتائق إلى اللذة. فمعظم المعتقدات الرائجة، أقله في العالم المسيحي، تبدو مربكة بسبب هذا الموضوع وتبذل جهدها لتقليص مكانته في الدين... تشهد بعض الحركات الدينية الجديدة... توكيداً قوياً على التضحية بالنفس حيث ينشط العمل الجاد للدفاع عن القضية... لربما يكمن إغراؤها الشباب في الالتزام والحدة والمثالية التي تنشدها، الأمر الذي يتناقض مع وجودهم الخفيف الظل والمتوقع»^(٥٧).

يبقى آية الله السيد فضل الله^(٥٨) في باله نقاش موصللي القائم على أن الجهاد «لا هو انتحار ولا حملة فظاعات» بعكس ما تقوله رايس، ويناقش قائلاً: «ليس الاستشهاد وليد عملية غسل دماغ. ولا هو غير عقلائي أو أخلاقي. فأولئك الذين يفسرون الاستشهاد بمثل هذا الأسلوب يستندون إلى منطقة علم النفس»^(٥٩).

وفي رفضه للمقاربة النفسية^(٦٠) لدراسة الاستشهاد، يقول العلامة فضل الله: «المشكلة مع علم النفس أنه يحاول دراسة ظاهرة الاستشهاد من منظور لغة براغماتية ونتائج مخبرية. إنهم

(٥٧) مومن، «ظاهرة الدين...» ٢٣١.

(٥٨) معروف في الأوساط الإسلامية أن العلامة المرجع آية الله السيد محمد حسين فضل الله هو الفقيه اللبناني القائد والمرجعية المحلية الذي يتبعها حزب الله.

(٥٩) «نحو فقه إسلامي ليبرالي: محمد حسين فضل الله ومبادئ الانطلاقة الشيعية»، في ابراهيم أبو ربيع، «الأصول الفكرية للإنطلاقة الإسلامية في العالم العربي المعاصر». الباني، نيويورك: جامعة نيو يورك، ١٩٩٦، ٢٤٢.

(٦٠) تتناقض آراء فضل الله بشكل كبير مع أنطون وخسرو خافار اللذين يقدمان شرحاً نفسياً للاستشهاد.

(علماء النفس) يرفضون الاعتراف بأنه يصعب فهم بعض الأمور إن لم يكن بواسطة الجهد والألم. لا يمكنك قط أن تقدر الحرية ما لم تذوق طعم العبودية. ولا تشعر بمرارة الجوع ما لم تقع في بؤرة الجوع»^(٦١).

على الرغم من الانتقادات التي وجهها السيد فضل الله للمقاربات النفسية للاستشهاد، يشدّد أنطون قائلاً:

«إن المكافأة الفعلية للشهداء هي نفسية أو لاهوتية (بلوغ الخلاص) استناداً إلى نظرة العالم للفرد. فالمناصرون يصفون موت الانتحاري بـ«عرس الشهيد» (أي مناسبة للفرح والاحتفال)، يقال إن الشهيد يصبح ولي الله ويجلس قرب الله في الجنة. تفتخر عائلته بإنجازه الأقصى وتحظى بتقدير الجماعة». (رأسمال رمزي)^(٦٢).

في خط مواز، يعرض خسرو خافار:

«ثمة مواضيع ثلاثة لتوجه الشهداء: (١) التحول بين الحزن والفرح؛ (٢) وحافز النضال ضد المعتدي؛ و(٣) تشبيه مقتل الشهيد بالعرس، ما يفسر الاحتفالات ورفض الحزن وضرورة الفرح الجماعي».

بحسب خسرو خافار، فإن الشهداء لا يموتون بل يبقون أحياء وحاضرين وسط الناس. وبالتالي فإن الموت المقدس ليس واجباً، بل هو تحقيق لأقوى الرغبات. يضيف خسرو خافار أيضاً أن

(٦١) محمد حسين فضل الله، «من أجل الإسلام». بيروت: دار التعارف، ١٩٨٩، ٤٩

كما ذكر أبو ربيع في «الأصول الفكرية...».

(٦٢) أنطون، «فهم الأصولية...» ١٠١.

موضوع دم الشهيد يرتدي أهمية حيوية؛ فعندما يُراق على الأرض، يعزز الدم من القضية المقدسة المرتكزة على محاربة قوى الشر ويعيد إحياءها. برأيه أن هذه الفضيلة المعجزة واللاهوتية قد تجد جذورها في انبعاثات جسد الشهيد المفاجئة، وهي انبعاثات تحرر طاقة جسد المحارب وتتسبب بالنصر المقبل على الأعداء. يخلص خسرو خافار إلى أن الشهيد يتوسل العائلة ولا سيما الوالدة ليحظى برضاها وبركاتهما للتشجيع على الأفكار الثقية في خدمة أولئك الذين ضحى الشهيد بنفسه لأجلهم^(٦٣).

مهما كانت الحالة، نفسية أم لا، فبحسب السيد فضل الله: «ما يعطي الشهيد الحق بالاستشهاد ليس القضية بالمعنى النظري، بل الظروف العملية التي أدت إلى بروز هذه القضية. بمعنى آخر، يبدو أن السيد فضل الله يريد القول إن على العلماء أن يفتوا بالاستشهاد فقط عندما يتطلب الوضع على الأرض أعمالاً استشهادية... لكن العلماء من وجهة نظر فضل الله هم ضمير الجماعة التي تشعر بالمعاناة. والمعاناة سببها الأساسي الإسرائيليون والرد الوحيد على هذه المعاناة هو الاستشهاد»^(٦٤).

في ما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي بشكل عام، والصراع

(٦٣) خسرو خافار، «شهداء الله الجدد»، ٢٣٠. في عمل مسبق، ناقش خسرو خافار «أنواع الشهداء الأربعة»: (١) «وهن شخص الاستشهادي»؛ (٢) «الاستشهادي كـ«أضحية»؛ (٣) «جسد الشهيد عائق لرغبة الشمولية»؛ (٤) «موت الجسد وعبادة المرشد». راجع فرهاد خسرو خافار، «الإسلام والموت: الاستشهادي الثوري في إيران». باريس: لارماتان، ١٩٩٥، ٢٥٨-٢٦٧.

(٦٤) أبو ربيع، «الأصول الفكرية...»، ٢٤٢.

الفلسطيني الإسرائيلي بشكل خاص، فقد أصدر العلماء المسلمون فتاوى عدة تجيز العمليات الاستشهادية.

٣ - ٤ فتاوى وآراء حول الاستشهاد

لا بد من الإشارة إلى أن الإمام الخميني كان أول من أجاز العمليات الاستشهادية مدافعاً عنها باعتبارها تشكل أرفع مستوى من التضحية بالنفس في سبيل الدين^(٦٥). أشار الخميني قائلاً:

«بصفتنا شيعة نرحب بأي فرصة للتضحية بدمائنا. تتطلع أمتنا لفرصة نمارس فيها التضحية بالنفس والاستشهاد^(٦٦). بالتالي فإن الموت الأحمر أفضل بكثير من العيش الأسود»^(٦٧).

يضيف الخميني قائلاً: «قائدنا هو ذاك الطفل الذي فجر نفسه أمام دبابات العدو»^(٦٨).

بدورهم أصدر العلماء الإيرانيون في قم فتوى أجازوا فيها العمليات الاستشهادية^(٦٩).

يعتبر آية الله السيد فضل الله العمليات الاستشهادية شرعية لأنها تحصل تحت راية الجهاد لإخراج قوات الاحتلال الإسرائيلي

(٦٥) مجلس العلماء المسلمين، «مسائل جهادية وحكم العمليات الاستشهادية. بيروت:

دار الوحدة الإسلامية، ٢٠٠٢، ٢٧، ٢٨.

(٦٦) أنطون، «فهم الأصولية...»، ٤٣.

(٦٧) كما تشير دايفس، «الشهداء: براءة...» ٤٥. أستخدم هذه كإحالة إلى رأس المال الرمزي: «الكرامة عكس الذل، والموت في الذل».

(٦٨) راجع البرنامج بعنوان «الدين والحياة»، المنار، ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

(٦٩) وكالة الأنباء الإيرانية، ١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

التي نفذت «إبادة» ضد الشعب الفلسطيني الذي لا يملك أي خيار سوى دحر العدو عبر تحطيم أمنه بشتى الوسائل^(٧٠). لدى تفسيره أساس العمليات الاستشهادية، يقدم السيد فضل الله تبريرات نفسية وسياسية عقلانية على الرغم من انتقاده الصريح للتبريرات النفسية للاستشهاد. برأيه أن المضمون النفسي للاستشهاد هو «السعادة الروحية». ولدى الاستفاضة في شرحه هذا الأمر، يناقش فضل الله بذهنية المسلم الذي يمارس مقاومة المحتل: «يتفق خيار الاستشهاد والموت مع الأسس الروحية والعقائدية للمؤمن. فيصبح الموت عملية محض إرادية تطلقها عوامل داخلية». أيضاً «الموت يشكل خطوة تقود إلى بلوغ الشهيد هدفه. لهذا السبب، عندما ينجز المؤمن الاستشهاد، يعيش سعادة روحية»^(٧١).

يضيف فضل الله في شرحه المضمون السياسي العقلاني للاستشهاد الذي يشكل «مقاومة شرعية»: «لا تشكل الهجمات الانتحارية في فلسطين المحتلة (اسرائيل) أفعالاً جبانة يقوم بها معدومون أخلاقياً كما يصورهم الإعلام الغربي، بل هي شكل من أشكال المقاومة الشرعية وسط تصاعد حدة المخاطر»^(٧٢).

بحسب العلامة فضل الله، تدعم العديد من الآيات القرآنية وجهة النظر القائمة على أن قتل الفرد نفسه مشابه للقتل المتعمد بمعنى أن كليهما يحتاجان إلى إذن من الله. يقول فضل الله: «في

(٧٠) «مسائل جهادية...»، ٣٧-٣٨.

(٧١) أبو ربيع، «الأصول الفكرية...»، ٢٤٢.

(٧٢) ابراهيم الموسوي، «فضل الله يشرح الأسس الدينية للهجمات الانتحارية»، دايلي ستار، ٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

الأساس يحرم قتل النفس أو الآخرين؛ لكن خلال الجهاد، وهو الحرب الدفاعية أو الوقائية وفق الإسلام، يُقبل بالقتل ويُسمح به إذ يعتبر الجهاد حالة استثنائية»^(٧٣). وفي تحليله للحجج اللاهوتية التي تشرع الهجمات الانتحارية، يقول فضل الله إن الله لم يحدد آلية معينة لقتال العدو وحماية حقوق الأمة. يؤكد: «إذا كان إنجاز النصر يعني أنه علينا اجتياز حقل ألغام، ما يعني بالضرورة ومن دون أدنى شك أن العديد سيقتلون، فلا بد من اجتيازه». وقال فضل الله: «إن الفلسطينيين الذين ينفذون العمليات الاستشهادية لا يستهدفون المدنيين بل يهدفون إلى الدفاع عن شعبهم عبر تكبيد الأضرار والخسائر للجانب الإسرائيلي، وذلك للحفاظ على نوع من التوازن مقابل الترسانة العالية التقنية التي يستخدمها الجيش الإسرائيلي»^(٧٤).

علاوة على ذلك، أصدر فضل الله فتوى تجيز العمليات الاستشهادية التي تنفذها نساء فلسطينيات^(٧٥)، وقد شكل هذا الأمر نوعاً من الثورة لأن الجهاد في الإسلام ليس لزاماً على النساء^(٧٦). فكما يقول الموسوي: «ناقض السيد فضل الله وجهات النظر التي يعتمد عليها العديد من أئمة الإسلام في ما يتعلق بدور النساء في الجهاد، قائلاً إنه يسمح للنساء بالمشاركة والقيام بعمليات التضحية

(٧٣) المصدر نفسه.

(٧٤) المصدر نفسه.

(٧٥) «البدل عن الحرب بالنسبة للنساء هو أداء فريضة الحج بشكل خاص». وينسينك، «العقيدة الشريعة للشهداء»، ١٥٤.

(٧٦) السفير، ٢ نيسان/ ابريل ٢٠٠٢. راجع تركيز أمال سعد على أن «فضل الله لم يصدر يوماً فتوى تدعم العمليات الاستشهادية...» في «حزب الله: السياسة والدين»، ١٣٢.

بالنفس: «ما من شيء في الإسلام يمنع النساء من النضال والقتال في سبيل الله. في المبدأ ليس مطلوباً من النساء القتال فهذا واجب الرجال لكن في ظل ظروف معينة (في الأراضي المحتلة) قد يكون من واجب النساء أيضاً»^(٧٧).

اعتبر «مجلس العلماء المسلمين» أن عمليات التضحية بالنفس ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي (في الأراضي العربية) شرعية وتشكل أسمى درجات الاستشهاد. أضافوا أنه بما أن الاستشهاد ينفذ بوعي وحرية وبملء الإرادة، وبما أنه نتيجة إيمان عقائدي بالله، فهو أحد أهم الأسلحة الاستراتيجية المتوفرة لدى المقاومة لتعزيز إرادتها ومحاولة قهر الاحتلال الإسرائيلي الغاصب^(٧٨).

اعتبر الشيخ حميد العلي أن العمليات الاستشهادية تهدف إلى قتل الكافرين المحتلين وزرع الرعب في قلوبهم وإجبارهم بالتالي على التخلي عن احتلال أرض الإسلام. وإذا ما أدت هذه العملية إلى موت حتمي لبعض النساء والأطفال كنتيجة وليس غاية، فإنها جائزة شرعاً^(٧٩).

لا بد من الإشارة إلى أن هذه الآراء حول الاستشهاد ليست محصورة بـ«الخطاب المسلم»؛ بل يبدو أنه ثمة انسجام ما بين «الخطاب المسلم» و«الخطاب المسيحي»، ما يمنح المسألة بعداً قومياً. يشكل رجل القانون والدستور والخبير في القانون الدولي،

(٧٧) الموسوي، «فضل الله يشرح، دايلي ستار، ٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

(٧٨) مسائل جهادية... ٨٢-٨٣.

(٧٩) مسائل جهادية... ٣٥-٣٦. يمكن النظر إلى ذلك على أنه إجراء عقابي لاعتماد اسرئيل نظرية الدمار الشامل.

اللبناني الماروني إدمون نعيم مثلاً على هذا الموضوع^(٨٠). أصدر نعيم فتوى^(٨١) تؤكد أن العمليات الاستشهادية في فلسطين المحتلة هي بالطبع شرعية. كما اعتبر أن القانون الدولي العام يجيز للشعب الفلسطيني مواجهة الجبروت العسكري الإسرائيلي الأعلى بشتى الوسائل المتوفرة بغية التوصل إلى توازن مع الأساليب التي يستخدمها الإسرائيليون. إذا لم يتمكن الشعب الفلسطيني من إيجاد سبل ناجعة (لوقف الجبروت العسكري الإسرائيلي) فيحق لهم تفجير أنفسهم في الأراضي الإسرائيلية رداً على التدمير الإسرائيلي وعمليات القتل التي تفذ على الأراضي الفلسطينية. لهذا السبب، تعتبر العمليات الاستشهادية شرعية لأنها الأسلوب الوحيد الذي يلجأ الفلسطينيون إليه للوقوف في وجه الأسلحة المتطورة التي تستخدمها إسرائيل ضدهم. لكنه اعترف أن استهداف المدنيين في

(٨٠) برزت وجهة نظر مماثلة في نيسان/أبريل ٢٠٠٢، عندما اجتاحت إسرائيل الضفة الغربية وتبادلت إطلاق النار مع حزب الله في الجزء المحتل من جنوب لبنان. في أعقاب هذه الأحداث، جاهر رجال الدين والساسة المسيحيون بدعمهم للانتفاضة ولقاومة حزب الله. على سبيل المثال، قال الكاردينال الماروني أن ما يجري للفلسطينيين مريع وأنه يحق لحزب الله تحرير الأراضي اللبنانية المحتلة. أضاف أن لديه ثقة كبيرة في حزب الله وفي عقلانيته في إدارة الأزمة. (صحف لبنانية عدة في نيسان/أبريل ٢٠٠٢، ولا سيما السفير بتاريخ ١٨، ٢٠، ٢٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٢). حتى أن «القوات اللبنانية» وهي الحزب المسيحي اليميني أصدرت إعلاناً يدعم الانتفاضة ومقاومة حزب الله. (راجع الصحف اللبنانية بتاريخ ١٧ نيسان/أبريل ٢٠٠١).

(٨١) الفتوى أمر ديني غير ملزم. وبالتالي لا يستطيع المسيحي إصدار فتوى على المسلمين؛ إنه يعبر فقط عن رأيه. راجع «إدمون نعيم يصدر فتوى يشرع فيها العمليات الاستشهادية؛ لا فرق بين مستوطن وعسكري إسرائيلي». السفير، ١٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

كافة المواجهات العنيفة أمر محرم. غير أن هذا المنطق لا يسود إلا في حال وجود نوع من التوازن في القوى بين الدول المتحاربة. وهذه بالطبع ليست الحال في فلسطين. لذا عندما يتعلق الأمر بتحديد المعتدي، لا فرق بين عسكر الدولة المعتدية وشعبها. وبما أنه لا سبيل لإيقاف القوى المعتدية العسكرية بواسطة أي سلاح يملكه المعتدى عليه، فالسبيل الوحيد هو المتفجرات البشرية (الفلسطينيون) مقابل المدنيين (الإسرائيليين). وبالتالي لا تمييز بين المستوطن المدني والعسكري الإسرائيلي. باختصار، يؤكد نعيم أنه من حيث القانون الدولي «تحتاج القوة الساحقة لمقاومة ساحقة»^(٨٢). وهكذا يعكس نعيم خطاب نصرالله عارضاً حسبما يدعي تبريراً قانونياً دولياً^(٨٣) إلى جانب التبرير الأيديولوجي.

اعترافاً منه بالمشكلة، يسلم وزير الدفاع الإسرائيلي السابق بن إيلعازر بأنه ما من نصر ينجز ضد الانتحاريين الفلسطينيين^(٨٤). وفي خط مواز، تقول دايفس: «كان الانتحاريون في لبنان فاعلين ضد إسرائيل، وفق بواز غانور وهو خبير اسرائيلي في الإرهاب والمدير التنفيذي لمعهد السياسات الدولية لمكافحة الإرهاب. في مقال نشره معهد غانور في ٢٥ نيسان/إبريل ١٩٩٨، قال إن الهجمات الانتحارية خلال الثمانينات أدت إلى انسحاب الإسرائيليين من جنوب لبنان وكان لها تأثيرات أكثر اتساعاً.

(٨٢) المصدر نفسه.

(٨٣) للحصول على تحديدات «للإرهاب» من وجهة نظر القانون الدولي العام، راجع فون غلان، «القانون بين الأمم...» ٢٧٥-٢٧٧.

(٨٤) يدعيوت أحرنوت، ٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٢، كما نقلت السفير في ٨ حزيران ٢٠٠٢.

«شكل هذا الأمر دليلاً للمنظمات الإسلامية الفلسطينية على أن الاستعداد للتضحية بالنفس والإصرار والرؤيا البعيدة المدى مرفقة بالاستخدام الصحيح للاستراتيجيات الإرهابية (مع الاعتماد على تأثير وسائل الإعلام على الرأي العام الغربي) قد يؤدي إلى انجازات سياسية وعسكرية صعبة المنال. تعلم الناشطون في المنظمات الإسلامية بسرعة أن المهمات الانتحارية تمتلك درجة عالية جداً من الفاعلية. (نجح عدد قليل نسبياً من المهمات الانتحارية الكبيرة التأثير في إخراج الفرنسيين والأميركيين وبالطبع الإسرائيليين من لبنان). بدأت المنظمات الإسلامية الفلسطينية معتمدة على أيديولوجيا أصولية شبيهة بأيديولوجيا حزب الله بتعلم الأساليب الإرهابية الجديدة وتقليدها وبوعظ الشباب على التسلح بالجرأة والتضحية بالنفس تحضيراً للمهام الانتحارية»^(٨٥).

لقد حان الوقت للتطرق إلى الفرق ما بين العمليات الانتحارية والعمليات الاستشهادية من دون إغفال النقاش السابق.

٣ - ٥ الانتحار والاستشهاد

من منظور الأخلاقيات النظرية والتطبيقية، يعتمد الأساس على التمييز بين ما يسميه الغرور النفسي انتحاراً: «الأفعال الإنسانية الإرادية كلها نتاج محفز أناني»، وما تصفه نظريات الأخلاقيات المعيارية بحب الغير. فالانتحار هو السلوك غير الأناني أو القائم

(٨٥) كما أشارت دايفس في «الشهداء...»، ٧٠-٧١. راجع أيضاً بواز غانور، «استراتيجية جديدة ضد الإرهاب» في الموقع التالي www.ict.org.il/articles/articleDet.cfm?articleid=4

على التضحية بالنفس. وكما ذكر أنفأ، فحب الغير هو فعل يتخطى حدود المطلوب أي فعل يتخطى نداء الواجب الأخلاقي^(٨٦).

وفق كولبيرغ، فإن الكتاب المسلمين «بينما يدينون الانتحار على نحو لا لبس فيه، يحاولون تحديد الحد الفاصل ما بين السلوك الخطر لكن الجدير بالإشادة (الاستشهاد) والتسرع الغبي إلى الهلاك (الانتحار)^(٨٧) بأكثر ما يمكنهم من دقة.

يحاول كولبيرغ الإجابة على السؤال التالي: «هل هو مسموح لمحارب أن يهاجم قوة معادية كبيرة؟»^(٨٨). ويخلص إلى أن ثمة إجماعاً بين رجال الدين المسلمين في القرون الوسطى الذين ينتمون إلى مختلف مذاهب فقهية متعددة أن الوضع هو كالتالي:

«يدعم رجال الدين مبدأ السعي إلى الاستشهاد واضعين عدداً قليلاً من المحظورات على تحقيقه»^(٨٩).

مع الأخذ بعين الاعتبار أن نقاش كولبيرغ قائم على أن «الأفكار الحديثة حول الاستشهاد لا يمكن فهمها عبر عزلها؛ فهي

(٨٦) راجع توم بوشان، «الأخلاقيات الفلسفية: مقدمة للفلسفة الأخلاقية»، طبعة ثانية. نيويورك: ماك غرو- هيل، ١٩٩١، ٦٨، ٧٩، ٢٤١- ٢٤٤، ٢٤٦- ٢٤٨، وبيتر سينجر، «أخلاقيات عملية». الطبعة الثانية. كامبردج: مطابع جامعة كامبردج، ١٩٩٩، ٢٤٣، ٣٢١، ٣٣٤

(٨٧) إيتان كولبيرغ، «آراء إسلامية من القرون الوسطى حول الاستشهاد» في Mededeelingen der Koninklik Akademie van Wetenschappen, Afdeling Letterkunde P dl 60, nr 7. Amsterdam: KNAW publications, 1997، ٣٠٣.

(٨٨) المصدر نفسه، ٣٠٥.

(٨٩) المصدر نفسه، ٣٠٦.

تستقي إلهامها من الماضي»^(٩٠).

ليس التشابه مع الانتحاريين المعاصرين بالمبالغ فيه. فيكتب كولبيرغ: «في معرض دفاعهم عن أفعال الانتحاري، على سبيل المثال، يقارن بعض الكتاب المعاصرين بينه وبين جندي القرون الوسطى الذي كان يواجه جيشاً كبيراً: بما أن هدف الانتحاري الاستشهاد، وبما أنه سيلحق على الأرجح الضرر بالعدو، فإن فعله ليس مشروعاً وحسب بل يتماشى مع إرادة الله؛ فهو ليس قتلاً للنفس (انتحاراً) بل تضحية بالنفس (استشهاداً). يصر هؤلاء الكتاب على أنه لو كان المسلمون في زمن النبي ﷺ يمتلكون المتفجرات العصرية، لكانوا استخدموها بالطريقة نفسها التي يستخدمها مقاتلو اليوم»^(٩١).

من هذا المنظور، حاول فضل الله وقاسم ونصرالله تحديد خط فاصل ما بين الانتحار والاستشهاد للحركات الإسلامية.

أدان آية الله السيد فضل الله هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر باعتبارها أعمالاً انتحارية إجرامية تشكل إبادة إنسانية بشعة من كافة الأوجه. هذه برأيه ليست أعمالاً استشهادية. أضاف أن لا الجهاد الهجومي ولا الدفاعي يبرر أفعالاً مماثلة مدانة شرعاً. إنها أفعال شريرة لا يجيزها أي دين أو حضارة أو منطق إنساني. فلا يصح استخدام المدنيين المسالمين الأبرياء كأدوات مساومة ووسائل وصولية لتغيير سياسة معينة (الولايات المتحدة). من وجهة النظر

(٩٠) المصدر نفسه، ٣٠٧.

(٩١) المصدر نفسه، ٣٠٦. لدى كتابة هذه المقالة، كان الانتحاريون كلهم في إسرائيل ذكراً.

الإسلامية، لا يصح الاشتراك في أفعال مماثلة لأنه ما من تبرير شرعي لمثل هذه الأفعال. أما ١١ أيلول ففعل مشين لا تجيزه أي ديانة أو توافق عليه أي «رسالة سماوية». هكذا يعارض فضل الله بصلافة استهداف وسائل نقل المدنيين لأن أمانهم وأمنهم يشكلان اهتماماً إنسانياً عالمياً من وجهة نظر شرعية^(٩٢).

لماذا كان فضل الله شديد الإدانة للهجمات الانتحارية بينما يدعم بحزم العمليات الاستشهادية التي ينفذها الرجال والنساء؟ يشدّد السيد فضل الله على أنه ثمة «تمييز لغوي بين العمليات الانتحارية» وعمليات «التضحية بالنفس»^(٩٣). يعتبر الانتحار جريمة من وجهة النظر الدينية^(٩٤). فلا يملك الفرد حياته ليضع حداً لها متى يشاء. وحده الله يملك حياة الجميع وإنه إثم عظيم أن تلحق الأذى بحياة الآخرين. إذا قتل أحدهم نفسه أو قتل آخرين من دون إذن ديني، فسيعاقب في الحياة الآخرة عبر الهلاك في الجحيم^(٩٥).

حسبما أرى، يبدو أن ثمة توافقاً بين آراء فضل الله وقاسم.

يميز الشيخ نعيم قاسم بين العمليات الانتحارية والعمليات الاستشهادية. في تفسيره للأخيرة، يحث الشيخ قاسم الأهل على

(٩٢) فضل الله، تقرير صحفي في ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ (www.bayynat.org.lb)؛ السفير، ١٤ أيلول ٢٠٠١؛ مقابلة أجراها سركيس نعوم في صحيفة النهار نشرت على دفعات في أعداد ١٩ - ٢٦ أيلول ٢٠٠١؛ مقابلة مع مجلة الزمان، ٢٧ تشرين الثاني ٢٠٠١.

(٩٣) التضحية بالنفس تضخيم للاستشهاد.

(٩٤) يؤكد وينسينك هذا الأمر: «الانتحار، مهما كانت ظروفه، ممنوع في الإسلام»؛

وينسينك، «العقيدة الشرقية للشهداء»، ١٥٣

(٩٥) الموسوي، «فضل الله يشرح الأسس الدينية...».

تربية أطفالهم على مبادئ الجهاد والاستشهاد^(٩٦) أو الموت في سبيل الله. برأيه إن المنطق في الاستشهاد يستند على فهم ديني وإيمان بالدنيا الآخرة حيث يعيش الناس بسعادة ويحققون آمالهم كلها فضلاً عن الثمار التي تجنيها الأمة نتيجة لذلك. يؤكد الشيخ قاسم أن الاستشهاد كواجب للدفاع عن الأرض المحتلة وتحريرها، هو تجسيد لمفهوم طاعة الله^(٩٧) وهو «المسؤولية الشرعية والتكليف الشرعي لله» التي تقود إلى الحياة الأبدية. يشدد الشيخ قاسم على أن الاستشهاد هو فعل محض إرادي يستند إلى الأسس الفكرية والنظرية لتنشئة دينية ونفسية وثقافية تلزم مفهوم الإيثار^(٩٨) القرآني، أي تفضيل الحياة الآخرة على الحياة الدنيا وتفضيل الأمة على الفرد. يخلص إلى أن الاستشهاد يرفق بضوابط شرعية أي إذا ما لم يكن بالإمكان توكيد إصابات أو عدد كبير من الضحايا أو الانتصار على العدو سوى عبر اللجوء إلى الاستشهاد، إذاً فهو مرحب به

(٩٦) يلمح الشيخ قاسم إلى أن الحركات الإسلامية وحزب الله تعتمد إلى التنشئة على مفهوم الاستشهاد؛ لهذا السبب كانوا ولا يزالون منتصرين. فبينما تعتمد الحركات القومية إلى التنشئة على مبدأ النصر، ولا تحصد سوى الهزيمة والخيانة. نعيم قاسم: «حزب الله، المنهج، التجربة، المستقبل». بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٢، ٥٨-٥٩.

(٩٧) الطاعة لدى حزب الله تعطي مفهوماً دينياً للكلمة (نصرالله، مقابلة مع السفير، ٢٨ حزيران/ يونيو ٢٠٠٠)؛ حسن فضل الله، الخيار والآخر: «حزب الله: السيرة الذاتية والموقف». بيروت؛ دار الهادي، ١٩٩٤، ١٢٥. كرر الشيخ نبيل قاروق، ممثل حزب الله في الجنوب، مراراً وتكراراً، «عندما تقترب الأمة من الطاعة، تقترب من النصر».

(٩٨) ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما يطعمونه لوجه الله؛ ... يوسع الشيخ قاسم مفهوم الإيثار من الصوم ثلاثة أيام وتفضيل إطعام الآخرين بدل إطعام النفس - فيضيف التبرع بالدم لصالح الأمة.

كفعل شرعي دينياً. بعكس رايس التي لا تميز بين الانتحار والاستشهاد، يؤكد الشيخ قاسم أن الانتحار وليس الاستشهاد هو تعبير عن الإحباط واليأس من الحياة وهذا ما يحصل لدى غير المؤمنين الذين يواجهون على سبيل المثال مصاعب اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية. فالشيخ قاسم واثق أن المؤمن يخضع لمشيئة الله ويعلم أن صبره مُجزى؛ أما الشخص الذي ينتحر فيذهب إلى الجحيم لأنه لا يملك حرية التصرف بحياته كما يشاء. لهذا السبب لا يخضع فهم الاستشهاد والموافقة عليه للمعاهدات الدولية أو لسياسات العدو والمستكبرين. يواصل الشيخ قاسم نقاشه قائلاً إنه لمن الطبيعي أن يشن هؤلاء حملة منظمة ضد الاستشهاد بغية تشويهه ونعته بأحط الأوصاف لأنه سلاح صامد ولا يمكنهم أن يخضعوه لسלטتهم. لهذا السبب، يلجأ الغرب للتهديدات والتهويلات التي لا تؤثر على الاستشهاديين إذ هم يعيشون في هذا العالم لكنهم لا يشكلون جزءاً منه^(٩٩). يضيف الشيخ قاسم أن الاستشهاد أعطى حزب الله قوة خاصة واستثنائية جعلت إرادة الحزب لتحقيق النصر أقوى خاصة عندما انتقلت هذه القوة باتجاه الأعداء^(١٠٠).

في هذا الصدد، كرر السيد نصرالله في مناسبات عدة أن «النصر هو دائماً نتاج الاستشهاد». كما أشار إلى العزة والكرامة في قلوب الشهداء: «يملك شعبنا في فلسطين (الضفة الغربية وغزة) كما في لبنان قوة عارمة؛ هم محبوبون للاستشهاد ومحبون لملاقاة الله

(٩٩) قاسم، «حزب الله: المنهج...» ٦١-٦٤.

(١٠٠) راجع البرنامج بعنوان «الدين والحياة»، المنار، ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

وتوافقون للذهاب إلى رحاب الله وجنات عدن»^(١٠١).

تشير حريق:

«هذا يعني أن بعض الهجمات (الاستشهادية) سينجح دائماً على الرغم من أقصى درجات الحذر المتخذة لتفاديها»^(١٠٢).

يعتبر السيد نصر الله أن الاستشهاد يشكل خطراً مساوياً لخطر الأسلحة غير التقليدية، لأن الهدف لا يستطيع إعداد آلية دفاعية للتعامل معه بعكس الدفاعات التي تم إنشاؤها لمواجهة أي سلاح تقريباً. لهذا السبب، يشكل الاستشهاد أداة فاعلة ولا يمكن للعدو أن يسيطر عليها أو يحتوئها^(١٠٣). وكما تلاحظ أمل سعد غريب بحق، فإن حزب الله «لا يسعى إلى الاستشهاد كغاية بحد ذاتها» بل كوسيلة لتحقيق النصر... من دون الحاجة الملحة لجهاد دفاعي، يتحول الاستشهاد إلى انتحار وهو محرم بوضوح في الإسلام لذا لا يكافئ مرتكبه بالحياة الأبدية في الجنة كما هي الحال بالنسبة للاستشهاد... (يقول نصرالله: «ربما يعتقد البعض أننا نتوق إلى الاستشهاد لأننا نحب الموت بأي طريقة كانت. كلا إننا نحب الموت إذا كان دماً قيماً وله تأثير أكبر (على إسرائيل)»^(١٠٤)).

بناء على ما تم ذكره سابقاً، يستطيع المرء الادعاء أن

(١٠١) راجع أرشيف تلفزيون المنار.

(١٠٢) حريق، «حزب الله: الوجه المتغير للإرهاب»، ٢٦.

(١٠٣) راجع خطاب السيد حسن نصرالله في النبي شيت بتاريخ ١٦ شباط ٢٠٠٣ في ذكرى استشهاد السيد عباس الموسوي الشيخ راغب حرب، وفي الذكرى الثامنة عشرة لتأسيس الحزب.

(١٠٤) سعيد غريب، «حزب الله: السياسة والدين»، ١٣٣.

الاستشهاد يشكل أكثر الوسائل الفاعلة والمتوفرة لدى المقاومة لمحاربة قوة احتلال فائقة العدد والسلاح. فكما تقول حريق: «تشكل الهجمات الاستشهادية الوسائل التي يملكونها بين أيديهم لمواجهة الإسرائيليين بفاعلية... لو كانوا يملكون أسلحة بديلة كمقاتلات الأباتشي الأميركية الصنع أو طائرات ال إف ١٦ التي يستخدمها الجيش الإسرائيلي، لاستخدموها كبديل»^(١٠٥).

في الختام أود أن أؤكد على أنه - بخلاف الفلسطينيين الذين فجروا أنفسهم بالمدنيين الإسرائيليين - لم يقم حزب الله بذلك أبداً. لم ينفذ حزب الله أي عملية انتحارية ضد المدنيين الإسرائيليين على مر السنوات الثمانية عشرة من صراعه مع القوات الإسرائيلية التي احتلت جنوب لبنان. على العكس، استهدفت كافة عملياته الميدانية والاستشهادية أفراد الجيش والمخابرات الإسرائيلية. تشير حريق: «خلال سبعة عشر عاماً من صراع حزب الله مع إسرائيل على الحدود اللبنانية الإسرائيلية في جنوب لبنان، لم يسجل أي فريق معني مباشرة (بما في ذلك فريق الأمم المتحدة على الأرض) أن حزب الله قد ارتكب هجوماً إرهابياً واحداً ضد مدنيين إسرائيليين... اتخذ حزب الله قراراً استراتيجياً مبكراً باستثناء التكتيكات الإرهابية من جهاده ضد الاحتلال الإسرائيلي وقد التزم بهذا الأمر»^(١٠٦).

فضلاً عن ذلك، لم ينفذ حزب الله أي عملية انتحارية في إسرائيل؛ بل ترك الأمر للفلسطينيين. يبرر نصر الله هذا الموقف

(١٠٥) حريق، «حزب الله: الوجه المتغير للإرهاب» ٢٦.

(١٠٦) حريق، «حزب الله: الوجه المتغير للإرهاب»، ٢، ١٦٨.

قائلاً: «لا يحتاج الفلسطينيون لمن يقاتل عنهم. فهم قادرون على القتال بأنفسهم مستخدمين البنادق والمتفجرات وأجساد شهدائهم لاجتثاث العار الصهيوني»^(١٠٧) وإلحاق الهزيمة بالكيان الصهيوني»^(١٠٨).

في هذا الموضوع، يقول ليفيت: «خلال السنوات الثلاث الأخيرة، كثف حزب الله من تدخله في النزاع الفلسطيني الإسرائيلي منتقلاً من تأمين الدعم المادي والتدريب للمجموعات الإرهابية الفلسطينية إلى التجنيد المباشر للمحاربين الفلسطينيين تحت إمرته وسيطرته»^(١٠٩).

٤ - هل الحركات الإسلامية وحدها تلتزم الاستشهاد؟

يمكن القول إن عملية عرض الأفكار حول الاستشهاد تخلص إلى أن العمليات الاستشهادية تُستغل من قبل قادة الحركات الإسلامية لمنح رأس المال الديني للأعضاء والمناصرين الذين يقتلون في معركة سياسية أو عسكرية. فالاستشهاد الذي يمجدهونه كوصية شرعية، يُستخدم كأداة حشد خاصة عندما يوعد هؤلاء الناس بدخول الجنة^(١١٠) إذا ما قاموا بعمليات استشهادية. قد يفسر هذا الأمر لماذا تعتبر الحركات الإسلامية وحزب الله الاستشهاد

(١٠٧) مرة أخرى، إحالة إلى الكرامة في مواجهة الذل؛ رأس مال رمزي.

(١٠٨) راجع أرشيف المنار.

(١٠٩) ماتيو ليفيت، «شبكة الإرهاب التابعة لحزب الله في الضفة الغربية»، نشرة الشرق الأوسط الاستخباراتية ٥ (آب - أيلول ٢٠٠٣)، ٨ - ٩، عبر الانترنت على

الموقع التالي WWW.MEIB.ORG/ARTICLES/0308-13.HTML

(١١٠) رأس المال الرمزي كالجهد والاستشهاد.

البطاقة إلى الجنة بينما ينظر الغرب إليه على أنه هجمات انتحارية إرهابية.

تجدر الإشارة إلى أن «التضحية بالنفس» و«الاستشهاد» أو الهجمات الانتحارية ليست محصورة بالإسلام؛ فثمة أنواع «قومية» من الاستشهاد علاقتها ضئيلة أو لا علاقة لها البتة بالدين، بل هي ترتبط بالنضال من أجل الاستقلال الوطني. على سبيل المثال، الشيوعيون الصينيون خلال العصيان في شنغهاي في العام ١٩٢٧؛ والكاميكاز اليابانيون في الحرب العالمية الثانية؛ ونمور التحرير في التاميل في سريلانكا والهند؛ وحزب العمال الكردستاني في تركيا؛ وبابار خالصا الدولية في الهند؛ كل هؤلاء لجأوا إلى العمليات الانتحارية^(١١١). حسب معرفتي فإن الشيوعيين الصينيين هم بوذيون أو كونفوشيسيون؛ أما الكاميكاز اليابانيون فهم من الشينتو والبوذيين؛ أما نمور التاميل فهم من الهندوس وقلّة من المسيحيين^(١١٢)؛ وحزب بابار خالصا هم من السيخ. يكتب غوناراتنا: «لقد نفذ نمور التاميل عملية انتحارية واحدة في الهند. وهي المجموعة الوحيدة التي قتلت حاكمين في العالم - رئيس الوزراء الهندي السابق راجيف غاندي^(١١٣) ورئيس سريلانكا

(١١١) راجع روهان غوناراتنا، «الإرهاب الانتحاري: تهديد عالمي» في بامبلا غريزيت وسوماهان، «الإرهاب في المنظور»، لندن: منشورات ساج، ٢٠٠٣، ٢٢٠-٢٢٥ وغوس مارتان، «فهم الإرهاب: التحديات والمنظورات والمسائل». لندن: منشورات ساج، ٢٠٠٣، ١٣١، ٢٥٩-٢٦٢.

(١١٢) على سبيل المثال، أنطون بلاسينغهام هو أحد القادة المسيحيين في نمور التاميل.
(١١٣) وفق مارتن، نفذت العملية فتاة في أيار/مايو ١٩٩١. «فهم الإرهاب...» ١٣١.

راناسينغي بريماداسيا - مستخدمين انتحاريين رجال ونساء»^(١١٤).

يضيف غوناراتنا أنه بين العامين ١٩٨٠ و ٢٠٠٠ على سبيل المثال، نفذ نمور التاميل ١٦٨ عملية انتحارية بينما نفذ حزب العمال الكردستاني ٢٢ عملية^(١١٥) وهو رقم يفوق كافة العمليات الانتحارية التي نفذت في اسرائيل ولبنان خلال الفترة نفسها.

في الشرق الأوسط، يشكل النموذج اللبناني مثلاً على المنحيين: «الاستشهاد في سبيل الإسلام» و«الاستشهاد في سبيل الوطن». مقارنة بالحالتين الإيرانية والفلسطينية، يصنف خسرو خافار الحالة اللبنانية كحالة متناقضة تتأرجح ما بين «الاستشهاد» و«الموت السخيف» بسبب الطبيعة المتعددة الطوائف والعلمانية للتعددية اللبنانية. برأيه لقد خلق هذا الأمر مع الاجتياح الإسرائيلي «أرضاً خصبة للاستشهاد»^(١١٦). أود أن ألفت الانتباه إلى واقع أنه في الحالة اللبنانية لم يكن حزب الله الحزب السياسي الوحيد الذي نفذ عمليات استشهادية ضد القوات الإسرائيلية التي تحتل لبنان. بل واجه حزب الله منافسة حادة من الأحزاب اللبنانية السياسية العلمانية والمتعددة المذاهب كالحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي اليساري وحزب البعث والحزب الناصري الاشتراكي خاصة في السنوات الممتدة ما بين ١٩٨٥ و ١٩٩٠^(١١٧). بينما قام

(١١٤) غوناراتنا، «الإرهاب الانتحاري...» ٢٢١.

(١١٥) المصدر نفسه.

(١١٦) خسرو خفار، «شهداء الله الجدد»، ٢٢١.

(١١٧) تماشياً مع اتفاق الطائف الذي أنهى الحرب الأهلية اللبنانية ووضع دستور لبنان الجديد في العام ١٩٩٠، تم تفكيك كافة الميليشيات باستثناء المقاومة الإسلامية، الجناح العسكري لحزب الله لأنه كان ولا يزال يصنف حركة مقاومة، وليس =

حزب الله باثنتي عشرة عملية استشهادية نفذها رجال شيعة^(١١٨)، نفذ رجال ونساء في الحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي عمليات استشهادية وكانوا من مختلف الطوائف.

بداية، سأطرق إلى العمليات الاستشهادية التي قام بها الحزب السوري القومي الاجتماعي. مع أن خسرو خافار يشرح «الحافز الديني» وراء العمليات الاستشهادية التي يقوم بها حزب الله والحافز «القومي» أو «السياسي» لدى الأحزاب العلمانية السياسية^(١١٩)، غير أنه يلمح في حالة الحزب السوري القومي إلى أن سناء محيدلي، الفتاة الشيعية البالغة سبعة عشر عاماً كانت الاستشهادية الوحيدة لدى الحزب^(١٢٠). لكنني أناقشه قائلاً إن الحزب السوري القومي الاجتماعي قد نفذ كحزب الله ١٢ عملية استشهادية، شملت إلى سناء خمس نساء أخريات. وبالتالي يبدو أن خسرو خافار يشدد على

= ميليشيا. وبالتالي منذ العام ١٩٩٠، احتكر حزب الله نظرياً المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان.

(١١٨) في ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٢، فجر أول شهيد لدى حزب الله أحمد قصير نفسه في مقر القوات الإسرائيلية في صور في جنوب لبنان فقتل حوالي ٧٦ ضابطاً وجرح عشرين آخرين. أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الوقت بيغن ثلاثة أيام حداد معتبراً أن ما حصل أسوأ فاجعة إسرائيلية منذ تأسيس الدولة في العام ١٩٤٨. (راجع خطاب نصرالله في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠ في احتفالات يوم القدس). يحتفل حزب الله سنوياً بـ«يوم الشهيد» في الحادي عشر من تشرين الثاني/نوفمبر تكريماً لقصير.

(١١٩) خسرو خافار، «شهداء الله الجدد»، ٢٢٨.

(١٢٠) في خطابها الوداعي الذي يذكره خسرو خافار، أهدت سناء محيدلي عمليتها الاستشهادية إلى أول شهيد لدى الحزب السوري القومي الاجتماعي وجدي الصايغ (المصدر نفسه، ٣٣٠).

رأس المال الديني^(١٢١) لكنه يتجاهل ذكر أو يهملش العمليات الاستشهادية الإحدى عشرة التي قام بها رفاق من الحزب السوري القومي هم، إلى جانب الشيعة، سنة، ودروز، وحتى مسيحيون^(١٢٢). أود التشديد على الوجه الوطني والطبيعة المتعددة المذاهب للهوية الوطنية بدل حصرها بطائفة واحدة كما يلمح خسرو خافار. تتركز فرضيتي على محاولة إثبات أن الحزب السوري القومي والحزب الشيوعي والاستشهاديين من غير الشيعة قد ضحوا بأنفسهم ليس كـ«موت سخيف» بل كرأس مال رمزي لرفع شرف أمتهم وكرامتها وتحرير أرضهم كما هي الحال مع استشهاديي حزب الله. ثمة رأي آخر وتعميم قابل للجدل قام به خسرو خافار يتعلق بالاستشهاديين المسلمين والعلمانيين وهو أنه يعتبر أن معظم الاستشهاديين يأتون من طبقات اجتماعية معدومة في جنوب لبنان^(١٢٣). بناء على بحث ميداني، وجدت أن معظم الاستشهاديين

(١٢١) خسرو خافار، «شهداء الله الجدد»، ٢٢٩-٢٣١.

(١٢٢) الاستشهاديون بالترتيب الزمني: ١ - وجدي الصايغ (١٣ آذار/مارس ١٩٨٥)؛ ٢ - سناء محبيلي (٩ نيسان/أبريل ١٩٨٥)؛ ٣ - مالك وهبه (٢٠ نيسان/أبريل ١٩٨٥)؛ ٤ - خالد الأزرق (٩ تموز/يوليو ١٩٨٥)؛ ٥ - ابتسام حرب (٩ تموز/يوليو ١٩٨٥)؛ ٦ - علي غازي طالب (٣١ تموز/يوليو ١٩٨٥)؛ ٧ - مريم خير الدين (١١ أيلول/سبتمبر ١٩٨٥)؛ ٨ - عمار الأعصر (٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥)؛ ٩ - محمد قناعة (١٠ تموز/يوليو ١٩٨٦)؛ نورما أبي حسن (١٧ تموز/يوليو ١٩٨٦)؛ ١١ - زاهر أبي عساف (١٨ حزيران/يونيو ١٩٨٧)؛ ١٢ - فدوى حسن غانم «سريانة» (٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠). راجع «البناء: صباح الخير، ١٠٣٩ (آذار/مارس ٢٠٠١)، ٢١-٢٣.

(١٢٣) خسرو خافار، «شهداء الله الجدد»، ٣٣٠. ناقض خسرو خافار نفسه عندما ذكر أن شهيدَي الحزب الشيوعي لولا عبود وجمال ساطي (امرأة مسيحية ورجل مسلم) هما من البقاع (المصدر نفسه، ٢٢٩).

هم من الطبقة الوسطى؛ حتى أن بعضهم قد بلغ التعليم الجامعي^(١٢٤). كما اكتشفت أن معظم الاستشهاديين جاؤوا من مواقع جغرافية مختلفة في لبنان وليس من جنوب لبنان كما يؤكد خسرو خافار. في حالة الحزب السوري القومي الاجتماعي، قيل لي إن أربعة شهداء على الأقل قد حصلوا تعليماً جامعياً وهم من الطبقة الوسطى؛ حتى أن أحدهم كان «مسيحياً أرسطقراطياً»^(١٢٥). كما ذكر في السابق، فإن العمليات الاستشهادية التي نفذها الحزب السوري القومي كانت تعتمد على أيديولوجيته السياسية كما أقر سعادة^(١٢٦). لهذا السبب لم يكن استشهاديو الحزب لبنانيين وحسب بل كان بينهم سوريون وفلسطينيون. (هذا يفسر لماذا أرسل الحزب السوري القومي، بعكس حزب الله، استشهاديين ليقوموا بعمليات استشهادية في إسرائيل). تشكل سناء محيدلي، استشهادية الحزب وعروس الجنوب أحد أشهر النساء الاستشهاديات؛ لم تكن تتعدى السابعة عشرة من عمرها عندما فجرت نفسها في العام ١٩٨٥ بدورية

(١٢٤) يناقش أوغسطس ريتشارد في الخط نفسه الذي أتبعه. «لقد أدى دخول الحزب (حزب الله) التدريجي إلى الساحة السياسية في العام ١٩٩٢ وجذبه لأفراد الطبقة الوسطى في المجتمع الشيعي إلى تحول أفراد حزب الله إلى «قوميين لبنانيين بامتياز». نيكولاس بلانفورد، «خبير من الجنوب يقول إن أفق السلام جيدة». الدايلي ستار، ٣ أيار/مايو ٢٠٠٠.

(١٢٥) مقابلة مع إيلى سعادة، عضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي، ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣.

(١٢٦) يؤمن الحزب السوري القومي الاجتماعية بالقومية السورية ويختار إقامة «أمة سورية» في «سوريا الطبيعية» تتضمن الدول الحالية التالية: لبنان، سوريا، فلسطين (إسرائيل)، الأردن، العراق، الكويت، سينا في مصر، قبرص، وأجزاء جنوبية من تركيا.

اسرائيلية^(١٢٧). عندما قابلت والدها^(١٢٨)، قال إن ابنته استشهادية وإنها ذهبت إلى الجنة مع أنها تنتمي إلى حزب سياسي علماني. كما قال «الدين لله والوطن للجميع»^(١٢٩). كرر والد سناء أيديولوجيا سعادة قائلاً:

«إن شهداءنا هم طليعة انتصاراتنا»؛ «إن اتصالنا باليهود هو اتصال الأعداء بالأعداء». وبرأيه فإن «سناء استشهدت لتحرر لبنان وسوريا الطبيعية من الاحتلال حتى تستطيع الأمة السورية أن تحيا بشرف وكرامة». ولدى تسليط الضوء على الإرادة القومية لقوة الحزب القومي، اقتبس والد سناء عن سعادة قائلاً: «إن فيكم قوة لو فعلت لغيرت مجرى التاريخ».

في معرض إظهاره التضامن مع العالم العربي ذات الأغلبية المسلمة، اقتبس عن قائد الحزب: «كلنا مسلمون، فمننا من أسلم لله بالقرآن ومننا من أسلم لله بالإنجيل ومننا من أسلم لله بالحكمة» وخلص إلى القول:

(١٢٧) قبل سنة واحدة من اعتماد حزب الله تصوير العمليات الاستشهادية والخطابات الوداعية للاستشهاديين، صور الحزب القومي الخطابات الوداعية لاستشهاديه بدءاً بسناء.

(١٢٨) ٢ تموز/ يوليو ١٩٨٨. توفيت والدة سناء قبل أن تنفذ ابنتها العملية. تجدر الإشارة إلى أنه تقديراً «لقدر ابنته العظيمة» قدم القائد الليبي معمر القذافي منزلاً لوالدها ولعائلتها وأمن لهم عملاً في ليبيا.

(١٢٩) ثمة تشابه كبير مع ملاحظة الدكتور عبود بأن «كل واحد منا حر في عبادة الله بالطريقة التي يريدها، لكننا لسنا أحراراً بالطريقة التي نتعاطى فيها مع بلدنا». الدكتور عبود هو شقيق الشهيدة لولا عبود. راجع دايفس: «الشهداء: براءة...» ٨٣.

«إن الدماء التي تجري في عروقنا ليست ملكنا بل هي وديعة الأمة فينا، فمتى طلبتها وجدتها». هكذا: «إن أذكى الشهادات هي شهادة الدم. هي عزيمة ليست بمرتدة عن غرضها الأخير، هي عزيمة تطلب الموت متى كان الموت طريقاً للحياة، هي عزيمة عبر عنها شهداؤنا».

استناداً إلى سعادة، يربط والد سناء مفهوم الاستشهاد بحياة الأمة وبقائها: «إن شهداءنا يمثلون أولى انتصاراتنا الكبرى».

ثمة مثال آخر هو مثال مسيحية من الطبقة الوسطى العليا المنخرطة في الحزب الشيوعي وهي لولا عبود، زهرة البقاع.

«امرأة شجاعة حاربت من جل أجل أرضها وشعبها وذهبت إلى حتفها بملء إرادتها»... لقد أنتجت عائلة عبود المسيحية المناضلة^(١٣٠) خطأ طويلاً من الشهداء المقاتلين^(١٣١).

تحدثت لولا من قرية القرعون اللبنانية حيث يعيش المسيحيون والمسلمون جنباً إلى جنب في تعايش سلمي. بحسب دايفس، أصبحت لولا «الاستشهادية المثالية» التي تقلدها النساء الاستشهاديات الفلسطينيات. «لقد مهدت هذه الطريق في لبنان»^(١٣٢). بحسب أخيها الدكتور فؤاد الياس عبود، كانت لولا «آخر استشهادية في العائلة» عندما فجرت نفسها بجنود اسرئيليين

(١٣٠) اعترفت والدتها أن لولا «كانت فتاة متدينة، تذهب إلى الكنيسة، تصلي وتضيء شمعة للجنود اللبنانيين الذين يحاربون اسرئيل». راجع دايفس، «الشهداء: براءة...» ٧٦.

(١٣١) المصدر نفسه، ٦٨.

(١٣٢) المصدر نفسه، ٦٨، ٧٧-٧٩.

هاجموا قريتها في ٢٠ نيسان/ابريل ١٩٨٥؛ كانت تبلغ التاسعة عشرة من عمرها^(١٣٣). برأيه أن الأساس المنطقي لاستشهادها هو أنها كانت «تقاتل من أجل تحرير أرضها» كحق وواجب تجاه حبا بلدها، ولوضع حد للإهانة ودعم شرف شعبها وكرامته. يضيف: «يستعد الشخص للموت من أجل قضية إذا كانت المسألة تتعلق بوجوده الخاص... إن حالات الاستشهاد كلها هي حالات قتال في سبيل الوجود... كل شهيد منا كان شهيداً قتل في معرض الدفاع عن نفسه^(١٣٤). لم نذهب أبداً إلى أوروبا أو قتلنا اليهود هناك. كنا ندافع عن أولادنا... لا يواجه الأميركيون هذه المشكلة. ليسوا مضطرين للقتال من أجل وجودهم وربما لهذا السبب لا يفهمون أو لا يتقبلون فكرة الاستشهاد^(١٣٥).

أضاف الدكتور عبود: «يختار المقاتل الحر الموت كخيار أخير. لا يختاره منذ البداية. بعد أن يجد أنه لا يستطيع القتال، يقرر أن يقتل نفسه... كانت لولا تقاتل الإسرائيليين داخل قريتها. لم تكن تقاتل الإسرائيليين في إسرائيل»^(١٣٦).

تلمح دايفس إلى فكرة أن الاستشهاد سلوك محب للغير ذو طبيعة تتخطى حدود المطلوب. تكتب خلال مقارنتها لولا بـ«جان دارك عصرية»: «من العدل القول إن أفعال لولا عبود تخطت كل التوقعات ليس بالنسبة للنساء في الحرب لكن للرجال أيضاً»^(١٣٧).

(١٣٣) المصدر نفسه، ٦٩.

(١٣٤) الجهاد الدفاعي.

(١٣٥) راجع دايفس، «الشهداء: براءة...» ٦٩-٧٠.

(١٣٦) المصدر نفسه، ٧٠.

(١٣٧) المصدر نفسه، ٧٢.

وبما أن استشهادهما حدث بعد يوم من عيد الفصح، يمكن القول إن موتها شكل نوعاً من الانبعاث لشعبها. تتأكد وطنية عائلة عبود أكثر فأكثر عندما يعترف الدكتور عبود أنه يجد نفسه مع حزب الله وينظر إلى نصرالله «كبطل قومي». يضيف أن نصرالله «يمثلني حتى أنا المسيحي. إنه يمثل أفكاري وأشعر أنه يمثل اللبنانيين كلهم». ويكمل الدكتور عبود قائلاً: «أنا شخص بذل جهداً كبيراً لتحرير بلاده، وحسن نصرالله شخص تمكن من تحقيق هذا الحلم لي. كان مسؤولاً عن تحرير بلدي وأقدر له هذا»^(١٣٨).

تخلص دافيس إلى القول إن لا والدة لولا ولا أخاها يشعران بأي تنافر بين «موت لولا وعقيدتهم المسيحية القوية، مع أن الديانة المسيحية كالإسلام تحرم الانتحار»^(١٣٩).

يقدم منيف محمد أشمر، والد شهيدين في حزب الله، تبريراً مشابهاً للاستشهاد: فجر علي نفسه في القوات الإسرائيلية التي تحتل لبنان (استشهادي) فيما قتل محمد في أرض المعركة بينما يقاتلهم (شهيد). قبل أن ينفذ عملياته في ٢٠ آذار/مارس ١٩٩٦، قال علي في خطابه الوداعي: «سيتحول جسدي إلى كرة نار تحرق المحتل الصهيوني الذي يحاول كل يوم وعن قصد تعذيبكم وإهانتكم (الشعب). لكن نهايته (المحتل) باتت قريبة إن شاء الله على أيدي المقاومة الإسلامية.»

يقدم والده منيف الأساس المنطقي نفسه قائلاً: «عندما يناديك الواجب وعندما تداس الكرامات بالأقدام، وعندما تكون عزة الأمة

. ٨١ (١٣٨) المصدر نفسه،

. ٨٤ (١٣٩) المصدر نفسه،

وكرامتها موضع إهانة من اليهود فلن نسكت...»^(١٤٠).

هذا الخطاب يشبه إلى حد بعيد شعار الحزب السوري القومي الاجتماعي القائم على أن «الحياة هي وقفة عز فقط» وهذا دليل آخر على رأس المال الرمزي^(١٤١).

وهكذا يناقش خسرو خافار أن أفكار الاستشهاديين اللبنانيين العلمانيين والشيعة على حد سواء، وخطاباتهم مشابهة لخطابات الاستشهاديين الشيعة الإيرانيين والاستشهاديين الفلسطينيين السنة. تقع نقاط التشابه في واقع أنهم كلهم يؤمنون بالقيم نفسها التي تركز على محاربة العدو من خلال الاستشهاد، ذلك الذي ينبع من إرادة للموت ورغبة في الخلود. يضيف خسرو خافار: «بالنسبة للشيعة، إنهم يحققون إرادة الله عبر محاربة العدو الكافر. أما بالنسبة للقوميين والشيوعيين، فالخلود يُنَجَز إما عبر التماهي مع «الجماعة الوطنية» أو عبر التماهي مع الفقراء (المعدمين) في العالم»^(١٤٢).

٥ . خاتمة

بعد تسليط الضوء على الجامع المشترك بين المقاومة الإسلامية والمقاومة الوطنية (انطلاقاً من مقابلاتي مع والد سناء ووالدة

(١٤٠) راجع حلقة «حزب الله: الهوية والدول» في برنامج «نقطة ساخنة» على قناة الجزيرة، ٢٤ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨.

(١٤١) يشير سعيد الغريب إلى «الكرامة» التي ينالها الشهيد بالتضحية التي يقوم بها، مقابل «الذل» في ظل الاحتلال. سعيد غريب: «حزب الله: السياسة والدين»، ١٢٨ ١٢٩.

(١٤٢) خسرو خافار، «شهداء الله الجدد»، ٣٣١.

استشهادي في حزب الله فضلاً عن أعمال الكتاب الآنف ذكرهم حول الاستشهاد) أقول إن العمليات الاستشهادية - سواء نفذتها حركات إسلامية أو حركات مقاومة - هي عمليات غيرية تتصف بالتضحية بالنفس وتتخذ شكل رأس مال رمزي (العزة والكرامة). يبدو هذا التعميم مسوغاً بفعل التناغم بين مختلف الخطابات التي سبق وتمت مناقشتها. لذا، أقترح أن تكون الأرضية المشتركة للحركات الإسلامية والقومية/العلمانية الإجماع بأن العيش في ظل الاحتلال موازٍ للعار والإهانة، وبالتالي إن وضع حد للاحتلال واجب ديني ووطني عبر استخدام كافة الوسائل الممكنة بما فيها العمليات الاستشهادية. في هذا البحث، أردت أن أعبر عن الطريقة التي يبني فيها الطرفان خطاباً دينياً أو علمانياً لتبرير الاستشهاد، كما أردت تسليط الضوء على الكيفية التي أنتج بها حزب الله خطاباً دينياً أصبح نموذجاً وأساساً لتبرير المجموعات والحركات الإسلامية ولا سيما المجموعات الفلسطينية. أما القاسم المشترك الذي يعتمده الطرفان العلماني والإسلامي فهو أن العمليات الاستشهادية قد نفذت بهدف تمجيد عزة وكرامة الأمة؛ هذا هو الحافز الأساسي وراء العمليات الاستشهادية. تكتنز عبارة رأس المال الرمزي معاني عميقة ومختلفة لكلمة «الأمة» بالنسبة لمناصريها. فالأمة تعني بالنسبة لحزب الله هي الأمة الإسلامية؛ أما الأمة لدى الحزب السوري القومي الاجتماعي فهي «الأمة السورية»؛ وبالنسبة للحزب الشيوعي اللبناني، تشير الأمة إلى فقراء (معدمي) العالم كلهم».